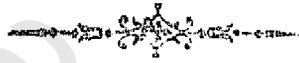


كتاب

مصباح الهداية

الى

الفوز في البداية والنهاية



تأليف

المفتقر الى الله تعالى

محمد طلعت المصري

مصباح الهداية

الكتاب الاول

تأليف

المفتقر الى الله تعالى

محمد طلعت المصري

مواضيع هذا الكتاب

البرهان على وجود الخالق من طريق
الكيمياء

البرهان على وجود الخالق من طريق
الفلك

البرهان على وجود الخالق من طريق
الطب

البرهان على وجود الخالق من طريق
الادارة والنظام

دليل عام على وجود الصانع القديم
سبحانه وتعالى من طريق العقل

اختلاف الناس من حيث معرفته
سبحانه وتعالى

ادلة الموحدين المنزهين على أنه واحد
غير متعدد من طريق العقل

ادلة الموحدين المنزهين على أنه أزلي
أبدي من طريق العقل

الكلام على أسمائه تعالى
في حكمة لتكوين

في حكمة التكليف

خطبة الكتاب لابانة الغرض من تأليفه
المقدمة . في لفت الانظار الى وجوب

النظرة والتبصر لسائل سبيل النجاة
ارواح موجودة وخالدة

ببواب الاول معلوم مجهول أو مجهول
معلوم

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق الفلاحة

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق الصناعة

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق الصناعة

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق التجارة

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق الرياضة

الدليل على وجود الخالق عز وجل من
طريق الميكانيكا

طريق الميكانيكا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

لأبانة الغرض من تأليفه

أحمد الله تعالى حمداً بلا حد ، وهو الواحد الأحد، أنعم على عباده المؤمنين، بنعمة الايمان وحسن اليقين ، وأصلى وأسلم بالاحصر على حضرة سيدنا ومولانا محمد خاتم المرسلين ، ونور الهدى المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، و (بعد) فالمعلوم من تاريخ الدعوة الاسلامية أن الوفود التي كانت تطلب الدخول في الاسلام كانت تقف على حضرة الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم فتمكث لدى حضرته الرفيعة يوماً أو بضعة أيام وتعود من لدنه عالمة بالأوامر والنواهي الدينية من سائر أنواع العبادات حتى انه لما ورد على حضرته العملية أحد وفود اليمن ومكث ما شاء الله أن يمكث من بضعة الأيام القليلة قال قائل منهم عند ارادة الانصراف : ألا ترسل معنا من يعامنا أمر ديننا يا رسول الله فقال حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم أليس منكم فلان وأشار الى واحد منهم فقالوا : بلى فقال : هو يمامكم . ولكن لما مني الاسلام في أمه الكثرية المدد بمن أكثروا من الاشتغال بالتفسير والتأويل معتمدين على قرأئهم وتصوراتهم ثم انجروا

بعد ذلك الى الجدل والأخذ والردّ ما بين بعضهم والبعض الآخر
تجريحاً وتعديلاً فصارَت بذلك كتب الدين من المطولات بالشروح
والحواشي والتقارير والتعليقات مما جعلتها قاصرة على العلماء والطلبة
الذين يريدون أن يكونوا يوماً ما من علماء الدين فلم يوجد بينها كتاب
يتمسك لأحد العوام من المسلمين أو من الأجانب عن الدين الخفيف
السهل المبين تناول التعاليم الدينية منه . حالة ان كثيرين اعتنوا بوضع
الكتب على حالة البساطة والسهولة في كثير من العلوم العمرانية الدنيوية
ولم يضموا في قواعد الدين كتاباً للعوام خالياً من الغموض سالماً من
التطويل مجرداً من ذكر أساليب التجريح والتعديل بعيداً من ذكر
طرق الخلاف وغلله مما يجعل الطالب حاصلاً على بغيته فيتوصل به
الى عبادة الخالق سبحانه وتعالى بطريق الصواب والسلامة من الخطأ
فقد عنيت بوضع كتابي هذا لأقوم بهذا القصد الجميل وقسمته الى
خمسة أبواب أولها في التوحيد وثانيها في حاجة الخلق الى الرسل واثبات
صدق رسالتهم وثالثها في العبادات بأقسامها ورابعها في خلق الأعمال
وشرح مسألة القضاء والقدر بأسلوب لا يستعصى على العقل فهمه ولا
ينافي مقصد الشرع الشريف ونظمه والتدليل على ان التوكل لا ينافي الأخذ
بالأسباب وخامسها ذكر كثير من الحكم والمواعظ الدنيوية والاخروية
وكل ذلك بأسلوب نافع بمشيئة الله تعالى وها هو أقدمه بين يدي نجواي
أرجو به دعوة صالحين المطلعين عليه . وأسأله تعالى لي ولهم حسن الخاتمة

المقدمة

في

(لفت الانظار الى وجوب العظة والتبصر والعمل لسالك سبيل النجاة)

ان كل من لديه نصيب من العقل وسلامة التصور يدرك لأول نظرة في الكائنات المرئية لعينيته انه ما خلق عبثاً وان له موجداً تفضل عليه بنعمة الوجود ونسبة عبوديته لذاته العلية ويدري من وجهة أخرى أنه يجب عليه لذلك المنعم العظيم الحمد والشكر وحده ، ولهذا جاءت الاديان كلها مبينة لهذه الغاية الجليلة من توحيد الخالق وعبادته وانارت له السبيل فصار واضحاً لمن توفق لسلكه موقناً بالنجاة ولم تطالبنا الاديان قاطبة بعد هذا الا بان نأمر بالمعروف وننتهي عن المنكر وأن لا يبني بعضنا على بعض وأن نستعمل جوارحنا في عمل الخير لكل كائن وأن لا نستعين بنعمة الله خالقنا ومصورنا على ايداء مخلوق ما من مخلوقاته لنكون من أهل السعادة لا من أهل الشقاء . ولهذا قد أكثر العقلاء الذين أشغلهم التفكير فيما بعد هذه الحياة في تحذير الناس من غرورها بذكر فنون من الوعظ والارشاد وضرب الأمثال النافعة في ذلك ، ومن أولئك العقلاء الفيلسوف « بيدبا » الهندي بكتابه الشهير المتداول بين الناس (كلية ود منه) فقد ذكر فيه مثالين واضحين يحسن بنا ايرادهما (المثال الأول) طارد أسد انساناً في الصحراء فلم يجد منه مهرباً

الا بأن يختفي في بئر صادفها في طريقه فتعلق بساق شجرة مائلة على فم البئر وكان عند أصل تلك الشجرة المغروس بحافته جرذانان أحدهما أبيض والآخر اسود يقرضانه وفي قاع ذلك البئر تينين عظيم فاعرَّ فاه ، فعوضاً من أن يفكر ذلك الانسان في التحيل وصولاً الى النجاة رأى أمامه حقاً مملوءاً بالمسل كان تركه بعض من مروا بتلك الجهة فتشاهل بالتدوَّق منه وفيما هو في ذلك إذ أتم الجرذانان قرص الساق فأسقطه في البئر فالتقمه التينين — ومغزاه أن الموت المعبر عنه بالأسد يسمى وراء الانسان ليسلبه الحياة عند انتهاء الاجل الذي وري عنه بالشجرة بتكرار مرور الليل والنهار على التعاقب اللذين أشار اليهما بالجرذانين الايبيض والاسود . وأن ذلك الانسان عوضاً من أن يتدبر الأمر لنجاته أطته لذة الدنيا القليلة الفانية الموماً اليها بالمسل القليل فسقط في القبر المعبر عنه بالتينين

(المثال الثاني) إنسان مر على « شيه جزير » مأهولة وعامرة بالقصور والبساتين وعوامل الحياة العمرانية وفيما هو يريد الدخول اليها من الجهة المتصلة بالبر اذا بأناس قبضوا عليه واحتفوا به واحتفلوا في موكب عظيم الى أن أوصلوه الى مركز الحكم وساموه زمام السلطنة عليهم اذ كان من عادتهم ان لا يولوا عليهم الا أجنبياً عنهم بحيث لا يمكن في الحكم أكثر من عام وفي نهايته يخرجونه من سلطنته الى جزيرة غامرة خربة قاحلة جرداء فيتركونه فيها محروماً من وسائل العيش حتى

يموت وهكذا شأنهم كل عام ، ولما كان ذلك الانسان من العقلاء أخذ يفكر في أمره الفجائي بسلطنة ما كان يحلم بها أو يتناها ولأجل الوقوف على السر في ذلك قد اصطفى رجلا من خيرة أهل تلك البحيت جزيرة واتخذته صديقا ووقف منه على جليلة الامر وحقيقة الحال وحين عرف العاقبة اهتم لها واشتغل بتمهيد تلك الجزيرة الجرداء القاحلة سرأ بعمونة ذلك الرجل فباحل الحول وارسلوه اليها الا ووجدها جنة من خيرة الجنان فعاش فيها سعيدا . ومنزاه أن الانسان لابد من أن يصير يوما رب عائلة (أشار اليها حضرة الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه بقوله : كلهم راع وكلهم مسئول عن رعيته) وهى المشار اليها بتلك السلطنة التى هى فى « البحيت جزيرة » المكنى عنها بالدنيا فيقضى عمرا محدودا هو المشار اليه بالعام ، فاذا كان الانسان عاقلا فيفكر فيما يكون بعد نهاية أجله ومفارقته الأهل والوطن مرغبا ليمود الى الدار الآخرة المعبر عنها والموما اليها بالجزيرة الجرداء القاحلة فيعمرها بالعمل الصالح الذى ورى عنه بذلك الرجل الذى اصطفاه سرأ أى بحيت يسلم عمله من الرياء فتى حان الحين وفارق الدنيا وجد ما عمله من خير حاضرا فى تلك الدار الآخرة فيكون من السعداء

فالمثال الأول مثال لأهل الشقاء الذين تلهيهم الدنيا الفانية عن

النظر والتفكر فى أمر الدار الآخرة الباقية فينالون بها سوء الجزاء

والمثال الثانى مثال لأهل السعادة الذين يفكرون دائما فيما بعد الموت

فيعمرون الآخرة بما يقدمونه من الأعمال الصالحة فينالون حسن
الجزاء الأوفى

ان الكتب في كل لغة وعند كل قوم مشحونة بالتحذير من الاعتزاز
بالحياة لأن أجلها قصير وعاقبتها الموت ومملوءة بالحث على العمل للآخرة
بأساليب شتى وبروح مؤثرة ، وقد تساوى في ذلك المعتنقون للاديان
ذوات الكتب السماوية وغيرهم من ذوى الاديان الاخرى ولكن
قل من يتعظ ويتبصر

فأما الذين يهملون أمر العمل للآخرة دائماً وبدون مبالاة وبلا
توبة ولا إنابة فلا بد من أن يكونوا إمامن الذين لا يعتقدون باليوم الآخر
ولا يوقنون به . واما من الذين يعتقدونه ويوقنون به ولكنهم على شك
عما ورد في الاديان التي اعتنقوها من كل مالا تسمعه عقولهم

أما الاولون فهم ممن لا يعترفون بخلود النفس ويظنون أن
الانسان كآلة البخار اذا انقطع عنها تأثيره وقفت واذا اختل نظامها
فسدت ويبنون على نكرانهم وجود الروح مسألة عدم الاقرار بوجود
الصانع القديم خالق الموجودات سبحانه وتعالى أعادنا الله منهم ومما يعتقدون
وأما الآخرون فهم ممن يجزمون بخلود النفس ولكنهم ينكرون
ما ورد في الاديان من أمر الثواب والعقاب والجنة والنار وحساب القبر
وغير ذلك

من أجل هذا كله سنثبت بعد هذا البيان مسألة وجود الروح

وأنها خالدة ثم مخاطب فريق المتعلمين كلاً بما عنده من المعلومات فنثبت لهم جميعاً منها مسألة وجود المصانع القديم جل شأنه وان كان سبحانه وتعالى غنياً عن التبريف والبيان والبرهان ثم نأتي بعد ذلك بكل ما يجب على المكلف من جهة التوحيد وأقسام العبادات وإثبات كل ما ورد في الدين من حيث الجنة والنار والحساب وسؤال الملكين إلى آخر ما هو من المسائل النقلية التي هي عند كثيرين من الناس مثار للشك وسوء الاعتقاد ونستوفي ذلك بما يسهل تناوله على الناظر في هذا الكتاب وخصوصاً الأجانب عن ديننا الإسلامى الشريف عسى أن يوفق الله فتحصل الهداية لبعض الاخوان في النوعية أو الدين والله سبحانه وتعالى المعين والهادى إلى الصراط المستقيم

﴿ الروح موجودة ومخالدة ﴾

« اجتهد أن تعرف من أين جئت وكيف جئت لتعرف إلى أين تذهب وكيف تذهب »
ان أحكم قول قاله المرسلون أو الانبياء أو الاولياء الاصفياء أو الفلاسفة الحكماء أو العلماء الاذكياء قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

(كفى بالمرء وعظماً)

ان لفظ « الحياة » اسم للحال التي يكون فيها الجسم حائزاً لمزايا الحركة والتفكير والارادة والاحساس والنطق والعمل كما ان لفظ الموت اسم للحال التي يتجرد فيها الجسم من حال الحياة إلى حال يكون معها

الجسم خامداً جامداً ساكناً لا يحس ولا يتألم ، فلموت ضد الحياة ، وكل حي الى فناء جسماني ولكن مدة الحياة اذا طالت فلا تمتد الا الى نحو المائة سنة على ندره وقلة وشدوذ والا فتوسط أعمار الناس من الاربعين الى الخمسين غالباً ولو أن بمض الناس يموت بمد زمن ميلاده بأمد قصير ، وكان الخالق سبحانه وتعالى اراد تقصير الآجال لحكمة جليلة اذ لو طالت اعمار الاشقياء من الناس فاستنفدت المئات من السنين لأصابوا بظلمهم وشروهم العمران البشري بما يجعل مصاعب الحياة ومصائبها أضعافاً مضاعفة لا تطاق فالحمد لله تعالى على قصر الآجال والحمد لله تعالى على ان الموت كان خاتمة حياة كثيرين كأهال نبيرون الظالم وفرعون العاتى الذى ادعى الالهوية

إن الانسان مع كونه قصير الأجل نراه طويل الأمل ولا يزال تصدر عن أفراده أعمال يتألم منها جسم الإنسانية فلا يفكر وقتاً ما فى أنه سيموت فيعمل لما بعد الموت ، ولو اتعظ لكان خيراً له وما ذلك الا لانكاره أمر وجود الروح وانها خالدة ولا أجل اثبات ذلك للمنكرين نقول :

لقد اشترك عموم أهل الأديان ذوات الكتب السماوية فى اعتقاد وجود أرواح غير منظورة من الملائكة والجن والشياطين وشاركهم فى هذا الاعتقاد أيضاً أرباب الأديان الأخرى كالزرادوشتيين والبوذيين والبرهمنيين والكونفوشيوشيين وغيرهم من فلاسفة الشرق والغرب

فقالوا بوجود عالم غير منظور ولكننا نريد أن نحاول من وجهة منطقية سبيلها نور العقل اثبات الروح الانساني وكونها خالدة بحد مفارقتها للجسم تاركين محاولة اثبات ذلك العالم الغير المنظور الآن حتى نصل الى محله من الكتاب بحول الله تعالى فاننا نقصد على الأكثر قوماً ينكرون الروح وهي الأمر المحسوس فكيف نبسؤهم بغير المحسوس فنقول:

ان جسم الانسان الحي يشتمل على شيئين لا يجرأ على انكار أحدهما منكر هما مادة الجسم والقوة العاملة في احساسه وشعوره ، فانه من المعلوم انك اذا تصورت شيئين فان تصورك أحدهما يبين تصورك للآخر خصوصاً متى كانا متغايرين . فمثلاً اذا تصورت دائرة ومثلثاً فانك تحكم بان تصورك للدائرة غير تصورك للمثلث كما ان تصورك للنقطة خلاف تصورك للخط وان تصورك للشمس خلاف تصورك للأرض وبناء عليه فتصورك للجسم وهو ذو أبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والسمك يخالف ويغاير تصورك للقوة التي تفكر وتحس وتريد وتنطق فالجسم له امتداد يحده ويميزه عن القوة المفكرة التي ليس لها امتداد ولا يمكن تحديدها في الحس لأن ما تصورناه من التفكير لا يشتمل على ما تصورناه من الامتداد فيثبت من هذا أن جسم الانسان الحي من كبر من شيئين هما مادة الجسم والقوة العاملة في احساسه وشعوره وهي التي نعبّر عنها بالروح

نعم انه من الصعب وليس من السهل معرفة كيفية ارتباط ما هو
مادة بما ليس بمادة لأن ما ليس بمادة لا يدرك بالحواس فيكون من
الصعب دركه الا بشئ ليس بمادة وهو نور العقل الذي هو من أسرار
تلك القوة المرتبطة بالمادة ، وحينئذ فليس من سلامة التصور أن يكون
عجزنا عن درك كيفية ذلك الارتباط باعثاً لنا على انكار تلك القوة التي هي
جوهر مجرد مفكر خال من الامتداد خصوصاً لأننا بها نحس ونحس
بأننا نحس ولنا جسم وان هذا الجسم متى فارقه تلك القوة لا يحس ولا
يفكر ولا يتألم ويخرج عن كونه حياً حالة كونه لم ينقص منه شئ من
مادته ، وليس ما تقدم فحسب بل ان الانسان في حال النوم التي هي بلا
شك حال بين الحياة والموت فيها لا يسمع ولا يبصر ولا يشم ولا يحس
يرى وهو مستغرق في نومه أموراً من أمور الحياة جميعها منها ما هو من
العمل البدني كالأكل والشرب ولقاء الأحباب سواء كانوا من الاموات
أو من الاحياء وغير البدني كالمباحثات والمجادلات فاذا استيقظ ذكر كل ما
كان رأى وعجب منه بل ربما يكون رأى ما يفزع فيه حمد الله تعالى وقت
تيفظه على ان كل ذلك كان حلاماً وؤرياء فاذا قال في نومه شعراً تيقظ وهو
يحفظه بعضه أو كله وربما رأى من أمور المستقبل ما يتم وقوعه مطابقاً لما
رأى ، ومن ذلك انه ثبت في كتب التاريخ أن السلطان مراد الاول من
سلاطين آل عثمان كان يعمل بما يرى في النوم فينجح وكجان دارك
الفرنساوية لما عملت بما رأت وقادت الجيش الفرنسي فانتصرت على

الانجليز وهى مسألة مشهورة، وكثيرون يقومون وهم في حال نومهم ويعملون أعمالاً كأعمالهم حال اليقظة بلا فارق سوى أنهم ناعون فاذا استيقظ النائم من أمثال هؤلاء وحديثه غيره بما وقع منه فانه يستنكره أى يستنكر اتيانه الحركة والعمل وهو نائم ولكنه يذكر أنه رأى الرؤيا، والاطباء لا يعرفون سر هذه المسألة ولا يقفون على كيفية التوقى منها وكثيراً ما يأتى الانسان فى نومه من الأعمال وينتبه وفى ملابسه أو جسمه أثر من تلك الأعمال، اذا كان هذا هكذا فهل هو من فعل ما هو مادة أعنى الجسم أو هو فعل ما ليس بمادة أعنى القوة المفكرة المجردة ؟ لاشك فى أنه من فعل القوة لا المادة

ولما كانت المحسوسات متنوعة من مرئيات ومسموعات وملموسات ومشمومات ومدوقات كان تركيب الجسم بحيث وضع فيه لكل نوع من ذلك آلة تختلف عن سواها شكلاً وتركيباً وفعلاً ألا وهى ما يسمى بالحواس الخمس التى هى البصر والسمع واللمس والشم والذوق والكل حقيقة واحدة هى إدراك النفس بمنافذ مخصوصة متنوعة، ومن عجيب القدرة القديمة التى صنعت ذلك أن جعلت تلك الحواس مختلفة التركيب والشكل فى أنواع الحيوان على اختلاف أجناسها وبحيث انها زائدة أو ناقصة فى نوع عن نظيرها فى نوع آخر وضعيفة أو قوية فى نوع عماهى عند غيره، فلهذا من الزاجل مثلاً حاسة سادسة بها يعرف مكانه فيعود اليه مهما كان بعيداً ومهما أخفوه عن الطريق الذى سلكه حين الانتقال،

وكقوة حاسة الشم في الكلب الى غير ذلك ، فان قلنا ان الحاسة السادسة في الحمام وقوة حاسة الشم في الكلب نتجتا عن شكل التركيب في جسمي الحمام والكلب فليس جسم أحدهما أكبر من جسم الفيل ولا أعجب منه ولا أكل حتى يكون هذا عن خصوصية في الجسم اذ لو كان الأمر كذلك لكان الفيل أوفى نصيباً من كل مزايا وأسرار الخلق ، فثبت مما مر أن الروح شيء آخر غير الجسم وانها هي ذات السلطان عليه ، وان الذي خالف بين قوى الارواح مكوناتها

بقي بعد هذا كله ان نتساءل عن هذين الشئتين القوة اى الروح والمادة اى الجسم هل تتلاشيان اذا تفارقتا ؟ اننا اذا سمعنا علماء الطبيعة يقررون كل آن ان المادة لا تنعدم ولا تتجزأ افليس من باب الاولى ان القوة التي لها السلطان على المادة لا تنعدم فتكون خالدة ؟ واذا كانت تحصل حوادث كثيرة من ارواح الاموات ونكرها ولا نصدق من يخبروننا بها فكيف بمن يرى احد امواته في الرؤيا ويخبره عن امر مجهول فيجد الرؤيا صادقة بعد ما يستيقظ ويقف على حقيقة ما رأى كما اخبرته تلك الروح ، لا بد من الميل الى تصديق امر وجود تلك الروح خالدة ومن لطائف الرحوم راغب باشا في سفينته المشهورة ما ملخصه لو سألتنا صحيفة من صحف اى كتاب من كتب العلم بقولنا : قد كنت بيضاء نقية فمن ملأ وجهك بتلك النقوش ؟ لاجبت ان هذا من فعل المداد فسله ، ولو سألتناه لاجاب : سل القلم الذي اجلاني عن وطني

(الدواة) ولو سألتنا القلم لقال سل الانامل التي قبضت على وحركتني ففعلت ما فعلت : ومتى سألتنا الانامل فتقول سل القوة التي حركتني وهنا نقف عند النهاية من عالم المادة الى البداية من عالم القوة ، فاذا فرضنا اننا سألتنا الروح لأجابت سل من أوجدني وألهمني بما نقش في صحائف الكتاب من العلوم فهو خالق الموجود من المعدوم لا اله سواه وكيف ينكر أمر الروح منكر في الوقت الذي قامت فيه الدنيا على سائر كل ممالك الأرض لا ثبات أمر الروح ورواية العجائب عنها ، وكيف ينكر أيضاً حين يرى بعينه فصل العجائب من الروح بالتويم المغناطيسي الذي أوضحت مسأله كالبديهييات لا تحتاج الى اثبات فيجب على كل انسان عاقل دوام الاجتهاد لا جل أن يعرف من أين جاء وكيف جاء ليعرف الى أين يعود وكيف يعود

الباب الاول

لأروم مجهول أو مجهول مماوم

(لا ثبات وجود الصانع خالق الكائنات سبحانه وتعالى بطرق مختلفة)
اعلم يا أخي أيدي الله وإياك بروح منه انك اما أن تكون فلاحاً تفلح الأرض وتجرثها لتستنبت الزروع والثمار منها بطريق الفلاحة التي عرفت أساليبها وفنونها المتنوعة عن أبائك، واما أن تكون صانعاً تعمل بيديك أنواعاً من الصناعات التي يحتاجها الناس ، واما أن تكون تاجراً

تتجر في شيء، دون شيء، أو في شتي أنواع التجارات في بلد واحد أو بين
مختلف البلاد، وإما أن تكون رياضياً، وإما أن تكون ميكانيكياً، وإما أن
تكون طبيعياً، وإما أن تكون كيميائياً، وإما أن تكون فلكياً، وإما أن
تكون طبياً، وإما أن تكون عاملاً ادارياً ممن يتعاطون الحكم على الناس،
وإما أن تكون من غير هؤلاء، فهما تكن اقل لك واطلب اليك ان
تزن قولى بميزان العقل السليم والفكر الصحيح لأصل بك وممك الى
ما ارجوه لى ولك من السعادة الابدية، فالأجل مما طال قهره وكفى
بالموت واعظاً لمن يعقل ويتبصر

فان كنت ايها المطلع على كتابى هذا

﴿ فلاحاً ﴾

فلا يسعك الا الاعتراف مئى بأن الأصل الاول فى فلاحتك
ان تختار اجود أصناف البذور المأخوذة مما جادت به عليك النباتات
المتنوعة التى انتجت لك تلك البذور، او ان تنتقى اجود الاعواد
المأخوذة بعد فصلها من النباتات والاشجار بمد عامك بالاقوات التى
يصلح فيها دفن تلك البذور او غرس تلك الاعواد للاستنبات، ولا بد
لك من ان تعترف بأن ليس لك من الأمر فى فلاحتك شيء سوى
حرث الارض وتهيتها لذلك وتعهدها بالسقى بعد ذلك فى مواقيت معينة.
فأما الارض فليست لك بل هى امك التى نشأت منها ودرجت عليها
واما الماء فكتلك ليس لك ايضاً وهو من امطار السماء وينابيع الارض

وبه ومنه حياتك وانت في كل ذلك خادم بسيط لا تدري ان كانت السماء ستجود عليك بالامطار القليلة ام الكثيرة ؟ دون الكفاية أو فوقها ؛ وان كنت ممالا يحتاجون الى الامطار فلا تدري من اين تأتي اليك مياه الينابيع ولا كيف يستمر جريانها وجريان الانهار ولا كيف لا تنتهي مع دوام الأ خدمتها والاسراف فيها ، وتجهل ايضاً امر الانتاج فلا تدري هل تسلم زراعتك من الحوادث الجوية والآفات السماوية والحشرات الارضية ، بل توقن أن امرها معلق بقوة عالية فوق قوتك . فأناشدك الحق اذا كانت حبة القمح تدفن في التراب فتسقى فتنبت فتبقى بالارض نصف عام فتنتج بعد ذلك سنبله بها مثلها أضعافاً مضاعفة منذ بدء الخليقة الى الآن ويستمر ذلك حتى فناء العالم فلا شك ان تعرف معي ان الذي وجد في السبق اول حبة القمح أم شجيرتها التي انتجت السنبله . وبفرض وجود هذه او تلك قبلا فهل يعقل انها اوجدت نفسها ام اوجدها موجد وهل لهذه او تلك سر الانبات ام للارض وحدها ام للماء وحده ام لهؤلاء جميعاً ، وما نقوله عن حبة القمح نقوله عن سائر الحبوب . وأناشدك الحق أيضاً اذا كنت تقطع عود قصب السكر انبوباً انبوباً ثم تفرس كل انبوب في التراب على حده ، او اذا كنت تفرسه جملة دون تقسيه الى اجزاء فتجد ان كل انبوب بعد سنة يكون عوداً كاملاً كأصله المأخوذ منه وان العود ينبت جملة اعواد ولو استبقى حتى يبلغ غايته وتؤخذ بذوره اذ ذاك ويررع كلها لكان ينتج اضعافاً مضاعفة

أيضاً لا ت كل نبات مها كان فأصله البذور كما يعلم ذلك علماء
الزراعة . وهكذا القول في كل نبات بل في كل كائن يأتي بطريق التوالد
فهو يلفت نظرنا الى كائن اوجدته فهو لا يوجد نفسه ، فاذا ادعت الفلسفة
وعملت فلا بد من ان ينتهي تعليك الى سبب مجهول لك تحس عند
خطوره بفكرك بالمعجز والخضوع . واناشدك الحق كذلك ما السر
الفعال في تنوع الزروع والثمار شكلا ولونا وطعماً ورائحة ونقماً وضراً
وخاصية حالة أن الماء نوع واحد والتراب نوع واحد في سائر بقاع الارض
أنظر الى البذور في شكلها وما تؤول اليه بعد الزرع تجد حبة القمح
والبرسيم والبقول والعدس والحبلة تنمو الى حدممين وثمر مرة واحدة
في كل مرة متى زرعت وتجد بذرة التوت والتفاح والكمثري وغيرها
تنمو نموا عظيما وتبقى الى مدى طويل وهي تثمر في كل عام حالة ان
الغذاء للجميع من الماء والتراب واحد ، أضف الى ذلك ان من الاشجار
العالية ما يثمر ثمرا طينيرا كل سنة كالجوز مثلا والتوت والتمر وأن
من النباتات التي لا تثمر الا مرة وتموت ما يكون ثمره عظيما كالبطيخ
وكالقثاء وكالقرع الاصفر واللوف وأمثالها ، وأعجب من هذا أن من
النبات ما ينمو في الارض فيسقى بالماء ومنها ما ينمو في الماء ومنها ما ينمو
في الهواء^(١)

لابدان تقول ان السر الفعال في ذلك لسبب مجهول لنا ، وانا

(١) انظر كتب النبات

مهما علمنا فلا يصل بنا التعليل إلا الى ما يعجزنا ويحملنا على الأقل أدلاء
خاصين لذلك السبب المجهول خصوصاً متى عرفنا بالاستقرار ان انواع
النبات لا تقع تحت حصر ولا يزال الانسان يجهل منافع وخواص الكثير
منها، وان منها نوعاً يشارك الانسان في الاحساس ونوعاً آخر يشاركه
في اكل اللحوم كالنبات الموجود بجهات امريكا إذ يقتص دم كل حيوانه
وكالنبات المسمى بمصيدة الزهرة فهو يصيد الذباب خاصة
أصنف الى مامر ان لكل نوع من الزروع ابلان فما يصلح زرعه في
فصل الصيف لا يصلح ولا يثمر اذا زرع في فصل الشتاء ولا ينتج اذا حاول
زارع زراعته في فصل آخر فكل فصل اجناس من الزروع لا يتم نضجها
واستثمارها في سواه

ومن حاول استنبات أى نبات في غير أوانه ضاع عليه تعبته في
محاولة ذلك سدى، ولولا اختلاف الفصول في كل جهة من جهات
كرتنا الارضية بسبب الوضع الآلهي للافلاك واختلاف مواقيت
بداياتها ونهاياتها لكان لكل بلد فصل تحرم منه الجهات الأخرى
وصنوف خاصة بها مدى الحياة تنفرد بها دون سواها ولم يكن ذلك على
ندرة أى ان بلاداً تكون حارة دائماً وبلاداً تكون باردة دائماً وتكون
هذه خاصة بمزروعات الشتاء وتلك خاصة بمزروعات الصيف، ولو كان
ذلك كذلك لاستأثرت بلاد بزراعة القمح الذي هو غذاء العالم وأنواع
مثله صالحة للتغذية وفي هذا مافيه من الفساد اذ يكون محصول الجهة

التي يصلح فيها غير كاف لعموم سكان الكرة الارضية ويختل نظام الحياة ولكن لم يكن ذلك فوضح ان وضع كرتنا الارضية من الشمس وضع عن حكمة مكوّنها لتكون الزراعة صالحة في كل جهة ومتوفرة بحيث تفي بحاجة الناس وبعض أنواع الحيوان ، وليكون كل صنف من الزروع مما يصلح في فصل دون فصل لا بد أن يكون نباته موجوداً في كل أطراف الارض طول أيام السنة اذ انه ان لم يكن موجوداً في جهة لعدم حلول اوانه بها فلا بد ان يكون موجوداً في جهة أخرى ، وهذه الحكمة الجليلة تدل دلالة ليس بعدها دلالة على ان هذا القصد لا يصدر الا عن قوة وقدرة سبب مجهول لنا من حيث كنهه وحقيقته لكنه معلوم من حيث جليل أعماله ومجائب مصنوعاته

أضف الى ما مر أيضاً ان العالم الانساني يشتغل بالزراعة في أجيال يفوتها العد والاحصاء ولكنه مازال يجاهد ويحشد ويكدر في تنويع الزروع ويستكشف ويستنبط ويستزيد ليصل الى درجة الكمال يوماً ما وما هو بواصل لان زمام ذلك السبب المجهول ليس بيد الانسان بل بالعكس ان زمام كل شيء بيد ذلك السبب المجهول الذي لم ينقطع خلقه وابداعه لحظة أو بعض لحظة فهو يرينا من عجائب ابداعه كل آن شيئاً جديداً وما لا بداعه من نهاية ، ولو أدرك الانسان بنظره الذكورة والانوثة في النبات وطلبه اللقاح وعلم انها تشمر وتحس ككثير من النباتات التي فيها حاسة الاحساس أظهر ، وكالنبات الذي يتغذى باللحوم

لفهم وتحقيق انها عالم مثل عالمنا الانساني الحيواني يحصل بينها العشق والتزاوج والتوالد دون ان ندرك أسرار ذلك ولكن لا يعقلها الا العالمون الذين يوقنون بالواحد الأحد الذى له وحده أن يخلق ما يشاء فلا يجحده الا ذاهل مجنون

ان الانسان مع هذا المعجز الظاهر يدعى القدرة ويدعى انه مدرك لأسرار الكائنات دون سواه فيظن ان الحيوانات لا تشاركه في المعرفة، ولو فطن الفلاح لعرف ان النملة فى تنهى جسمها فى الصغر وفى الحول والقوة تصنع لنفسها بيتاً فى جوف الأرض وتظل تجمع الحبوب وتخزنها به لفصل الشتاء حيث انها لصغر جسمها وخفته تخشى الفرق فى مياه الامطار واصابتها بضرر الا وحال فتبقى فى بيتها الشتاء كله تدخله فى أول يوم منه ولا تخرج الا فى آخر يوم من أيامه وتعرف ذلك دون حاجة الى تقاويم الفلكيين وتمداد الايام والشهور وهى كامنة فيه ، ثم انها لعلمها ان حبة القمح متى دفنت فى الأرض ونالها ماء المطر أو غيره من المياه تنبت ولم تعد تصالح لغذائها فتراها لهذا السبب تكسر حبوب القمح كل حبة الى قسمين أو ثلاثة حتى لا تنبت وتظل سليمة لغذائها، وهذا يعرفنا قطعاً انها تدرى بما يفيدها من جهة الفلاحة ، فياترى من علمها ذلك أليس هو ذلك السبب المجهول الذى كلما عللنا أسباب وجود شىء ذهب التعليل وانتهى بنا اليه ، وفوق ذلك فهى قائمة لا تعرف الطمع فهى لا تجمع الا ما يكفيها لمدة الشتاء هى وجماعتها ، وفى غير الشتاء

تأكل رزقها اليومي دون التفات الى الغد فلا تحاكي الانسان في جمعه
وادخاره وحرصه واستثماره بما يجمع دون اخوانه البائسين كما انها لا تصنع
بيتها فيما يزيد عن حاجتها من المساحة بخلاف الانسان الذي يكفيه حيز
قليل من الارض فيشغل مساحة كبيرة بالقصور والبساتين الفسيحة بما
يزيد عن حاجته كثيراً جداً حالة ان كثيرين من اخوانه بنى الانسان في
اشد حالات الاحتياج الى مأوى فيراهم ولا يرحمهم - ولا تظن ايها الفلاح
ان النملة وحدها تعرف ذلك بل ان الثور الذي تستخدمه في مزرعتك
للحراث وجر الماء يعرف ذلك فانه يرى شتى النباتات تحت أرجله ولا
يأكل الا الصالح الاصلح لغذائه ، وان الذئب يميز بين أعواد قصب
السكر وبين القصب المعروف بالغاب فيفد على مزرعتك في غفلتك
فيمتص منه ماشاء لعلمه انه حار ونافع ولذيذ ولا يقرب من قصب الغاب
الا ليتخذ منه نجباً يخفي به عن عينيك ، وان الحيوان المعروف بالورثة كيف
انها اذا حاربت الثعبان قتلته بطريقها المعروفة ، تذهب فتأكل من نبات
معروف لها تعلم انه شاف من سم الثعبان وان النحل يذهب الى البساتين
فيجني من نوز الزهور أطيبها ومن زهر الاثمار أرواحها وازكاها ولا
يقترب من ثمر مر أو حامض أو سام أو ذي رائحة كريهة على العكس
من كثير من الناس الذين يأكلون ما يضرهم ولا ينفعهم ، فهلا تعرف
من هذا كانه أن ذلك السبب المجهول هو قادر وصانع وحكيم مهتدعاه
المنكرون باسم من الاسماء او نعمت من نعموت ، انه في ذلك مجنون

مستوه ليس عنده ذرة واجدة من سلامة التصور مهما أرانا بمعلوماته
انه عالم وفيلسوف ، فسبحان الذي أنبت كل شيء نباتاً حسناً وأخرج
من الماء كل شيء حي وأودع فيه وفي التراب سر الانبات لا اله سواه
وان كنت أيها المطلع على كتابي هذا

صانعا

بأن كنت نجاراً أو حداداً أو حائكاً أو بناً أو أى صانع كنت
فاعلم يا أخى ان كل صانع محتاج الى ثلاثة أمور هي : علم تام بصناعته
وآلة أو آلات يصنع بها ومواد مستوفاة يأخذ حاجته منها لتكوين
مصنوعاته ، فاما علمك بالصناعة فانك وسائر الصنائع المختلفي الصناعات
مفتقرون الى قتل الايام والاشهر والاعوام للدرس والتمرين على أيدي
أساتذة مهرة لاستيفاء مسائل تلك الصناعات التي هي متولدة بداعي
الحاجة اليها منذ وجود الانسان الأول على هذه الكرة الارضية في
مدى أجيال بعيدة ، والناس جميعاً منذ ذلك الانسان الأول الى الآن
مشترون في جمع اشقات أسرارها ومعاناة بيان اشكال اوضاعها
وتهيأتها بطريق التعاون والتدرج في الترقى جيلاً فجيلاً وما زالت ولن
تزال قابلة للترقى بدليل ما يظهر آنا بعد آن في الممالك والبلدان
وأما الآلة أو الآلات والمواد جميعاً فهي بلا ريب مما اخرجته
بطن الارض سواء أكانت من النباتات أو المعادن وسائر الجمادات أو

الحيوانات ، ولكن ما وصل اليك منها لم يصل الى يدك الا بعد ان اشتغل في استخراجها من بطن الأرض وكائناتها وتحضيره بالصورة التي هو عليها قبل أن تصنعه مئات بل ألوف بل ملايين من بني نوعك ، ومتى فكرت ولو قليلا لتعرف من الذي أودع بطن هذه الارض سر تكوين سائر المواد المختلفة سواء أكانت حيوانية أو نباتية أو جمادية من كل ما احتجت اليه في صناعتك وفكرت ايضا في كيف انها اختلفت شكلا ولونا وصلابة ونفعا لهذا التفكير الى انها راجعة كلها الى سبب واحد مجهول من حيث كنهه وحقيقته معالوم باعماله وعجائب مصنوعاته ولكن علمه بالصناعة منه والآلات التي صنع بها منه والمواد التي استخدمها في مصنوعاته منه ولكن لا ندري كيف علم أم كيف صنع أم كيف أوجد ما أوجد فلا يعلم بحقيقة كنهه وحقائق اعماله الا هو ، فانك أيها الصانع وانت كائن صغير من جملة مصنوعاته لا يمكنك منفرداً ولا يتأتى لك مجتمعاً بجيوش من بني نوعك ان تهتدي الى معرفة كنهه ، وكيف لا وانت لا يمكنك ان تعرف حقيقة صنف من صنوف شتى من مصنوعاته ، وعدا ذلك فأنت صانع حي بعد امد قصير تموت قهراً بدون اختيارك واما هو فصانع حي أبدي أي دائم الوجود بدليل ديمومة مصنوعاته فان الذي ينعدم منها يتجدد غيره ويخلفه بقدرة ذلك الصانع وابتداعه

ولو فكرت من جهة أخرى ولو قليلا لعلمت انك في الحصول على

اجتياجاتك لصناعتك أفقر كثيراً من أحقر حيوان في نظرك اذ أقل
نظر منك الى النمل والنحل في بناء بيوتها يربك انها لم تحتج اليك لاني
الاخذ عنك ولا عن غيرك علماً وعملاً بل علمها معها لكن لا عن معلم
آخر غير مكوونها هو آلاتها في جسمها فلم تحتج الا الى المواد وهي
شريكتك في الأخذ مما أخرجت بطن الأرض فلا بد من أن السبب
المجهول الذي يعمل به المنكرون وجود الاشياء هو الذي أودع فيها ذلك
فانها في افتقارها هي الى بني نوعها لا تساويك في افتقارك الى بني نوعك
ولا في عدد من يعاونونك ، على العكس منك فأنت فقير الى المعاونة
بغيرك على درجة كبرى حتى في رغيف من الخبز الذي تأكله اذ انه لم
يصل اليك الا بعد ان يشتغل في صنعه الالوف بين زارع وحاصد وطاحن
وعاجن وخابز مضافا الى ذلك من استخرجوا وجهزوا وصنعوا آلات
تلك الاعمال كلها التي جعلت رغيف الخبز حاضرا وصالحا لغذائك ،
فكيف أن ذلك السبب المجهول الذي يعمل به الموجودات المنكرون
جعل تلك الكائنات الصغيرة الحقيرة في نظرك قليلة الحول والقوة
أقدر في احتياجاتها منك الى احتياجاتك

ولا يجمل بنا ان نقف بك عند هذا الحد من البيان بل يجب ان
نلفتك بعد وضوح كونك افقر الى التعاون في احتياجاتك من النحل
والنمل الى انك اقل قوة واطرف قدرة من كثير من الحيوانات
كالاسد والفيل وغيرهما لولا بنائك فهو الذي امتزت به على سائر

انواعها فان بنائك هو الوسيلة الوحيدة لاستخراج ما صورّه فكرك
وتخيلته مخيلتك من حيز العدم الى ميدان الظهور بأعمالك اليدوية
الزراعية منها والصناعية الى سائر اعمالك ، والا فما يبدو من اعمال
الحيوانات والحشرات العجيبة التي يعجب منها الانسان كالنحل ودودة
الحرير والنمل والعناكب وغيرها مما افرده به بعض المؤلفين كتباً خاصة ،
كل ذلك يدلنا دلالة واضحة على انها تعقل وتفكر وتعمل لمصالحها وتدرا
المضار عنها وان انكرها الانسان وانه لظالم . فذلك السر المجهول الذي
يعلل به الكائنات المنكرون هو الذي اوجد لضعفك قوة من اصغر
جزىء في جسمك الا هو بنائك فصار معارفاً بأعماله العجيبة التي
تجلت وظهرت بك وبسائر الكائنات فسبحانه من صانع قادر حكيم
مبدع لاله غيره تعالى وتقدس ، وتمس من جوده وانكره
وان كنت ايها المطلع على كتابي هذا

تاجرا

تتاجر في شيء دون شيء او في شتى انواع التجارات فمن المعلوم
ان ما في حوزتك من السلع ليس من الحاجيات التي هي متساوية من
حيث قيمتها او شكلها او نوعها او فائدتها ولا هي من النبات وحده او
الحيوان وحده او الجماد وحده ولا هي من محاصيل بلد واحد ولا هي
من صنع اهل بلد واحد بل ان كلما هو تحت يديك من انواع التجارات

من نتائج الارض كلها وصنع جميع الناس الذين انت فرد منهم ، وان سائر صنوفها مهما اختلفت شكلا وقيمة ونفعا وحجمها هو خارج من بطن الارض ، وان نظرة واحدة من كل سليم العقل والادراك اليها تكفى لان يعلم من تلك النظرة ان كل ما وقع عليه نظره هو من نتائج ومتاعب ومجهدات النوع الانساني من يوم ان ظهر الانسان الاول على ظهر الارض بطريق الترقى التدريجى بمضى اجيال لا تقف تحت المد والاحصاء ولا يزال يدأب ويجد للحصول على ما ينقصه من تلك الاحتياجات التى يكون التاجر واسطة انتقالها بين الناس لاجل تبادل الحاجات من يد غنية عنها ليد مفتقرة اليها فلم يصل الى امتيافاتها ، ولو يملكون امرهم كما يريدون لما وقفوا عند حد من الترقى ولو صلوا الى الراحة على اسرع ما يركبون من كلما امسكنهم ، وان نظرة واحدة اخرى لمن يعقل ويفهم ترشده الى ان المزايا موزعة على عموم الاقطار فلم تجتمع كلها فى بلد كما انه لم يخل منها بلد ، وهذا انما هو من العلل التى دعت الى التجارة ، وان ما اشترك فى وجوده بلدان او جملة بلدان لا بد ان يكون على درجات متفاوتة فى الجودة والحسن ، فما العامل الفعال ياترى فى ذلك كله من افراد بلد بمزية لم تكن فى اخرى غيرها وتفوق بلد على بلد فى صناعة اتحادا فى عملها ، اليس هذا دليلا جليا على ان فى البلدة التى انفردت بشىء لم يكن فى غيرها خاصية ايجاد ذلك الشىء وقد خلت منها تلك وعلى ان البلدة التى انتجت المصنوع الطيب دون البلد

الآخر يدل على تفوق اهل هذا البلد على اهل ذلك البلد مثلاً في القوتين
الجسمية والعقلية علماً وعملاً وتحصيلاً واختراعاً وتمديناً الخ وعلى ان
اتقان مصنعون دون مصنعين من نوعه مما أنتجته الصناعة وتفوق صنّف
على صنّف مما أنتجته الزراعة وسموّ شيء على شيء في النفع والقيمة من
سائر الاشياء كل ذلك لسرفامض فانك مهما عملت المحاصيل باختلاف
وضع الأقطار في المناطق الحارة والباردة والمعتدلة وعلمت اختلاف
النوع الانساني الذي أنتج تلك المحاصيل في القوة والضعف والعقل
والادراك باختلاف المناطق أيضاً فبماذا تعمل نفس هذا الاختلاف في
ذات البلد الواحد الذي يكاد يكون موجوداً في كل شيء ، لا بد أن
تعترف بان السر الفعال في ذلك كله راجع لسبب مجهول لنا قد أوجد
العالم على هذا النظام البديع فهو وان كان مجهولاً من حيث كنهه
وحقيقته معلوم من حيث أعماله وعجائب مصنوعات

وإذا نظرنا نظرة أخرى الى تجار تاجروا في تجارات متحدة
الاصناف والجودة والقيمة وبرؤس أموال متساوية ايضاً وبفرض ان
كلا يعمل وحده في تجارته حراً وانهم غير مشتركين وانهم متساوون
في العلم والقوة والنشاط وحسن الاسلوب في الاخذ والاعطاء أفهل
تراهم بعد بضع سنوات على تساوي الكسب والخسارة أو الهناء والشقاء
لا شك انك تقول باستحالة ذلك اذ ان منهم من يسمو ومنهم من ينحط
ومنهم من يفتقر فيمسي وليس في حوزته شيء مما كان يملك فان حوادث

كثيرين من التجار منظورة بالعين وتكاد تكون ماموسة باليد فقد يصيب بعضهم الافلاس فينتحر ويصيب البعض الآخر فيصبر ، أليس ذلك يدلنا على ان الناس غير متساوين في درجات الهناء والشقاء واليسر والعسر وانهم لا يملكون من أمرهم شيئاً والا بان لم يكن ذلك كذلك فكانت الحال بينهم غير مائرى فما من احد يريد لنفسه أن يكون شقياً تعسافلو كانوا على درجة واحدة من سائر الوجوه لاختل النظام

وإذا نظرنا في حال من افلس فانتحر ومن افلس فصبر فنجد ان الاول وقما اصابته الصدمة اسند امره الى نفسه خطأ فرأى من العار ان يراه الناس اليوم على غير ما كان عليه بالامس فينسبون اليه الجهل وسوء التصرف الى غير ذلك من الامور التي يراها الناس عيباً فتضيق في عيبيه الدنيا فينتحر تخلصاً مما توهمه من جسامة النكبة واستحالة العلاج ، ونرى الثاني اسند امره حال الصدمة الى امور لم يكن في طاقته منعها وانه مع ما هو عليه من العلم وحسن التصرف كان جديراً بغير هذا فيشعر بأنه لا بد من مؤثر مجهول يقدم هذا ويؤخر ذلك وان الامور لم تكن عن مصادفات وعندئذ يتقلب على المصائب ويصبر ، فمتى علمنا هذا أليس من افلس فصبر واسند الامر الى مؤثر مجهول من حيث كنهه وحقيقته معلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته خير ممن اسند الامر الى نفسه فعاقبها بالانتحار . اننا نرى كثيرين من الناس يتصادهون مع كثير من الاسباب القهرية التي تجعلهم راضخين لسيادة

مخلوق من امثالهم فيظنون مستعبدين امامه وتحت سيطرته مساويين
الاختيار أليس من باب الاولى والعقل والرشدا ان يعتقدوا ان ذلك
السبب المجهول ذو قوة عالية فيجب ان يلجأوا اليه من جهة ويأخذوا
في اسباب ما يزيل مصابهم معتمدين عليه من الجهة الاخرى ، انه لا
شك في ان من يحكم بخلاف هذا يكون عديم التصور والادراك
مهما اوتي من علم ، فانه لو لم يكن في اسناد المصائب امورهم اليه الا
الراحة لكفى فسبحان الواحد المؤثر الفعال النافع الضار الذي بيده
السعادة والشقاء وهو الرزاق ذو القوة المتين لا اله سواه .

وان كنت ليها المطلع على كتابي هذا

رياضيا

فاعلم وفقني الله واياك ان مدار فهم العلم الرياضي بأقسامه على الذكاء
وسلامة الادراك ودقة التصور فيها انا اطلب اليك ان تزن قولي هذا
بقواعد وموازن وقوانين العلم الرياضي الصحيحة التي لا تخطى واراك
انك ستفنى بهذا المطلب وبناء عليه فأقول لك :

اولا انه من العلوم في التعاريف الهندسية ان النقطة لا امتداد
لها وفي عرفهم ان اية نقطة بأدق قلم على القرطاس تكون ذات امتداد
وعلى هذا فالنقطة في عرفهم ليس لها طول ولا عرض فهي وهمية
نكثير منها وجودية لانهم يقولون : ان ما لا ينقسم اصل لما ينقسم

فالنقطة التي هذا تعريفها عندهم اذا تحركت على استقامة كونت خطا مستقيما ولهذا فإن تعريفه عندهم : الخط « ماله طول فقط » فعرضه وهي أيضاً أكثر منه وجودي ، فاذا تحرك الخط كَوْن السطح ومن السطوح تتركب الأجسام الهندسية ، وعليه فالأصل في علم الهندسة النقطة من الهندسة المادية الى الهندسة الوصفية

فاذا أردنا معرفة مبدع هذا الكون الذي لا ينكر أحد عظمته ونظامه المعجيب لا بد أن نذهب في التعميل من أدق كائن من الكائنات الى أعظم كائن فبرى ان كرنا الأرضية مملوءة بثلاثة عوالم هي : عالم الحيوان والنبات والجماد وكل واحد منها يشتمل على أنواع تحتها أجناس لا تقع تحت الحصر ، وكل جنس يشغلنا البحث عن علة وجود أدق مخلوق منه وما فوقه في الرتبة الى أجل مخلوق من ذلك الجنس سنين ، ثم لو تتبع البحث في تعميل جنس بجنس مما يقع تحت كل نوع لانتهت السنون التي لا تحصى ولا تنتهي من تعميل يشقى الغليل ويقربنا من الحق ، والدليل على ذلك بين أيدينا فكيف من آلاف المجلدات الضخمة في عجائب المخلوقات الأرضية ومثلها في العوالم السماوية وكلها ملأى بالأراء المتضاربة أو المتناقضة منذ بدء الخليقة حتى الآن ، فاذا نحن امتدت آجالنا واستقرينا مباحثهم فلا نهتدي الا الى مثل النقطة الهندسية التي هي وهمية أكثر منها وجودية ولكننا نخرج من استقرائنا الطويل على فرض امكانه بشيء واحد هو ان لهذه الكائنات علة ايجاد بلا شك

وأنها علة واحدة لا متعددة كما ان الأصل في علم الهندسة النقطة .
ومن المعلوم أيضاً في علم الحساب ان الواحد الصحيح أصل العدد
وعلة تكوينه وهو يدور مع الأعداد في كل مراتبها مهما تناهت
ولكنه اذا انقسم صار كسوراً وخرج عن كونه واحداً صحيحاً هذا
من جهة وأما من الجهة الأخرى فهو لا يكون الأعداد الا بانضمامه
على نفسه فواحد زائد واحد يساوي اثنين وواحد زائد اثنين يساوي
ثلاثة وهلم جرا الى أن نصل الى مرتبة العشرات فالمئات فالآلوف
فالآلوف الألوف حتى الفصل الثاني عشر وهو فصل الديشليون الذي
هو آخر فصل جعله واضع العلم الحسابي نهاية للمدد وعليه فالأصل
في إيجاد الكائنات الأرضية والسموية علة واحدة غير متعددة وغير
منقسمة الى أجزاء وطبعاً غير مركبة كما أن الممدد مهما تناهى فأصله
الواحد الصحيح الذي اذا انقسم صار كسوراً ويخرج عن كونه واحداً
صحيحاً ، وبما أن الواحد هو الأصل في تكوين الأعداد فهو فرد من
جنسها لا يكون الا الأعداد بخلاف الواحد الذي هو علة هذه
الكائنات ما نراه منها ومالا نرى بدليل ان مكوناته ليست من نوع
واحد فكيفية تكوينه اياها مجهولة لنا ولا يعرفها الا هو بدليل ان العلم
الرياضي يقول : من البديهيات ان الكل اعظم من أجزائه وان الجزء
أصغر من الكل ، فمن باب الاولى يكون من البديهيات أيضاً ان الجزء
لا يحيط بالكل أي اننا مادنا كالمدم بالنسبة لهذه العوالم العظيمة

التي أفنت كثيرين منا على أجيال متباعدة جداً فلا يمكننا أن ندرك
كنها وهي مستمرة النظام فضلاً عن ادراك كنه موجودها
ثانياً - من المعلوم ان كل عدد محصور بين عددين يكون متناهيًا من
الطرفين أي ان له أولًا وله آخرًا وان الخط المحصور بين خطين مهما
امتد إلى مالا نهاية له يكون متناهيًا أيضًا أي ان له بدءًا وله نهاية
فلا يلزم أن يكون موجود هذه الكائنات كذلك اذ لو كان كذلك
لكان متناهيًا كخلاقته ، واذا كان متناهيًا فلا يستمر الابدان والأعدام
ولا يستمر دوام هذا النظام .

ومن المعلوم ان حد علم الحساب أي تعريفه انه علم يبحث فيه عن
كيفية اجراء العمليات المختلفة على الأعداد ، وما القصد من معرفه
اجراء تلك العمليات المختلفة الا لغرض الوصول الى نتيجة مجهولة لنا
نطلب بها الوقوف على حقيقتها والعلم بها فقياسا على هذا لو أردنا أن
نعرف « البحث » عن أصل الاكوان للوقوف على علة إيجادها لقلنا :
انه علم يبحث فيه عن كيفية اجراء العمليات المختلفة على الكائنات
المختلفة المواد وارتباطها بالقوى الفاعلة فيها ، ولكن استحالة اجراء
تلك العمليات على تلك العوامل والأجرام المختلفة المواد والتراكيب والوضع
والشكل والجرم يجعله علما يكسب العالم والمتعلم جهلا تاما بدليل اختلاف
العلماء وتضارب آرائهم وأقوالهم وبراهينهم منذ بدء الخليقة الى الآن
كما قدمنا آنفا في مسائل من الكبريات أو الصغريات فكيف بسائر الاجرام

ثالثاً — من المعلوم انه لأجل حل أية معادلة جبرية ذات مجهول واحد أو مجهولين أو ثلاثة مجاهيل يجب ان يكون بها شيء من المعاليم لمريد الحل ليستعين بها لمعرفة المجهول الأول أو الثاني ثانياً والثالث ثالثاً فلا يصل الى العلم بالمجهول الأخير الا بعد العلم بالمجهولين قبله واحداً فواحداً، فها هي المعاليم التي لديك أيها الرياضي العظيم لتستخرج بها حقيقة المجهول الواحد أو الواحد المجهول الذي هو الاصل في ايجاد هذه العوالم التي لا تخص طالة أنه لا يمكنك ان تتفرد لمعرفة العوالم الكونية جملةً وهي التي اختص بكل واحد منها واحد من الناس، فن أنت حتي يتسع عقلك بفرض اتساع أبحاثك لمعرفة كنهه وحقيقة كونه واحد من الاكوان من حيث معرفة مشتملاته المتنوعة وحقيقة السر الساري في جزىءه فجزىء من أجزائه المتكاثرة أنواعاً وأجناساً وعن السر الساري في جرمه الكلى المشتمل على تلك الأنواع والأجناس التي أنت من أصغر أفرادها فضلاً عن باقي الاكوان السابحة في الفضاء الذي لانهاية له وفضلاً عن البحث عن مبدعها المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بمجائب مصنوعاته وجلائل أعماله

رابعاً — لأجل ان تعلم انك صغير جداً أمام البحث عن أسرار الاكوان وعن حقيقة مبدعها العظيم لا أذهب بك بعيداً أيها المهندس الرياضي العظيم فالنحلة والتملة شريكك في العلم الرياضي واليك البيان فأمما النحلة فانيها بمعاونة جماعتها تختار جزءاً من مساحة أي مكان

بحيث تراه انه محل الأمن من الأخطار فتشغله بوضع بيوت تتجاوز
المئات عدداً وكلها سداسية الشكل ، ومن المعلوم ان الشكل السداسي
يشترط فيه تساوي الزوايا والاضلاع وهو الشكل الوحيد الذي اذا
تراصت أمثاله حوله فيقتصد في المساحة ولكنه يناسب حجمها
الاسطوانى وهو أقرب الى شكل الدائرة فعلم النحلة بانقراده هذا الشكل
بهذه الخاصية واختيارها له وعدم إخلالها بشيء من شرائطه وخلوسائر
بيوتها من النقص أو الزيادة لاني الزوايا ولا في الأضلاع كل ذلك
يدلنا على انها تعرف ما تحتاجه من علوم الهندسة والحساب والمساحة
طبعاً ، وما دما نراها تحرص بمد ما تقدم كل الحرص على تساوي فتحات
سائر البيوت بغاية الدقة فوق محافظتها على التماثل الهندسى في الوضع
فهذا يدلنا دلالة أخرى على انها تراعى أمر الحراسة إذ الفتحات لا تضيق
عن دخول جسمها كما لا تتسع لدخول الزناير أعدائها وتراعى مسقط
النور فهي لا تضع بيوتها في مكان مظلم ولا محجوباً عن الشمس وما
تركناه مما شاركت فيه الكيمائيين فهو أعجب ، فن الذى بصرها
هذه التبصرة ؟

وأما النحلة فانها بماونة جماعتها تضع بيتها بحيث يقيها مصائب
الأمطار ومضار الأوحال بوضع يحفظه من الانغمار بالماء ، فان لم تصدق
فادرس كيفية وضعها بيتها فتعلم ذلك وتدرى بانها على علم تام بما تحتاجه
من الهندسة فهي لا تحتاج الى وضع الميازيب ولا الى أى عمل من أعمال

الانسان ومتاعبه لا تقاوم الأقطار بإرشاد المهندسين أمثالك ، فمن ياترى
بصرها هذه التبصرة

خامساً — من الذى وضع فى العالم الأرضى سر تكوين موجوداته
على أشكال مختلفة شاملة للتماثل الهندسى فى كل صغيرة وكبيرة من عوالمه
الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فضلا عن إبداعها سوى ذلك الواحد
المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بأعماله الجليلة وعجائب مصنوعاته
والذى هو صانع الكائنات كلها على الإطلاق ، فسبحانه من إله الأحصى
كل شىء عداً وقدر فهدى فهى لا إله سواه
وإن كنت أيها المطلع على كتابى هذا عالماً

ميكانيكا

فعلومك وفنونك التى وصلت اليك بعد جهاد ملايين من بنى
الانسان حتى بلغت ما بلغت مما هو فى مكونات صدرك وهطويات
كتبك التى هى لاتزال قابلة للترقى بمتابعة الاجيال المستقبلية ، هذه
العلوم والفنون قد أوصلتك الى مركز قدرة هائلة فكان منها ان تصنع
آلة بخارية تسير فى البر وأخرى تجرى فى البحر وعيرها تغوص فى الماء
ومسواها تطير فى الهواء ، ولكن أليست كل آلة من تلك الآلات
مركبة بحيث ان كل قطعة منها تحت تأثير قطعة أخرى وهكذا حتى
تنتهى الى قطعة رئيسة هى تحت تأثير البخار مباشرة وهو بالنسبة الى

قوة تلك الآلة في مجموعها كلاً شياً سواء أكان ذلك من حيث الكمية أو الوزن أو الشكل أو الضعف خصوصاً إذا استحال إلى حاله الأولى ، وهذه القوة البخارية متولدة من غليان الماء إلى درجة معينة بواسطة أية حرارة سواء أكانت من الكهرباء أو نار الخشب أو الفحم الحجري أو الغاز أو حرارة الشمس ، لا بد أيها المهندس الميكانيكي الماهر أن تقول : بلى هكذا حال أية آلة بخارية أو غير بخارية كالآلات التي تدار بالهواء أو بقوة تيار الماء وهكذا أصل قوتها ، وهي مهما كانت نوعها تشمل العجائب في إدارة المعامل الصناعية المتنوعة والكثيرة المدد المختلفة الصنع والتركيب من حيث العُدَدِ ، ولا شك في أن تقول أيضاً أن معظم عجائب الصناعة هي نتيجة تلك الآلات التي هي تحت تأثير المدد من الإنسان مديرها ومديرها وممدها وصانعها ، فلو انقطع مدده عنها لو تقفت أو لو انقطعت عنايته بها لخربت ، فهكذا هكذا الإنسان لولا المدد الواصل إليه من صانع كل أجزاء جسمه ومودع السر الساري فيه والذي هو عامل الحياة فيه والذي يمر عنه كل إنسان بلفظة « أنا » والذي هو الأصل الفعال في إمكان ما استطاع من اختراعاته « لولا ذلك » لهلك ، فإن قلت ليس من سر عامل في حياة الإنسان وإنما هو مستمر الوجود بطريق التناسل وهو كالألة التي اختل نظامها بفساد بعض أجزائها فهل كنت فانظر وتصور أن الآلة مع كل قوتها لا تدرك ولا تحس ولا تريد فهي كالعبة في يد الإنسان المدرك المرید الحساس ليستعين بها على

عمله واننا لو تراجعنا الى الوراء لنصل الى أول رجل وأول امرأة هما أصل العالم الانساني وقد وجدنا من غير طريق التناسل المشاهد، فمن أوجد ههما؟ فان قلت انهما جدا بلا موجد فقد نسبت اليهما قدرة ايجاد نفسيهما فليهم لم يقدر اعلی استمرار البقاء ليفلتا من يد الفناء القهري باستمرار المدد الذي يحفظ الآلة من الفساد فتبقى به الحياة مستمرة وان قلت باستحالة وجود أول رجل وأول امرأة بل من طريق التناسل الى ما لانهاية له فهو أمر باطل بالبداهة ولا يقول به أحد فلا بد من ان تعود وتقول انهما وجدنا بفعل سبب مجهول لنا، ومن الضروري أن مثل هذا التعليل يدخلك في دائرة المعتقدين بوجود الصانع الذي يهب عنه المنكرون بالسبب المجهول عناداً وجهلاً فهو الذي اذا أراد ان يجعل المدد مستمرا منه للانسان فقد يظل حياً

هذا ما يصل اليه البحث عقلاً وشعوراً ووجدانا واستدلالاً إذ ان استمرار وجود هذا العالم بما اشتتل عليه من الانواع وما تحتها من الاجناس باقية سائرة بنظامها البديع وكل منعدم منها يخلفه آخر من جنسه متجدد يدل على وجوده وعلى انه دائم ومستمر على نظام الایجاد والاعدام مع استمرار الوصول للمستمر الوجود حتى يريد فناءه والابقاؤها مستحيل متى انتقطع مدده عنها كالحال في أية آلة على اننا نرى الأجرام السيارة في الفضاء مستمرة النظام ولا نرى مسيرها ومديرها كما نرى مدير الآلة ولا نعرف مماذا تركبت كما نعرف أجزاء الآلة وما غاب عنا أكثر ولو

كانت الآلة تعقل وجودك وجوداً محسوساً لعقلنا نحن أيضاً وجوده محسوساً فسبحانه من إله احتجب بحجاب العظمة والكبرياء والنور فصار مجهولاً من حيث كنهه وحقيقته معلوماً من حيث أعماله وعجائب مصنوعاته . ولو كنت قادراً على ان تخترع ما يحفظ جسمك من الفساد ودوام المدد اليه لفعلت ولكن الحركة والسكون ايجاداً واعداً بيده جعل شأنه وسبحانه من إله يقول للشيء كن فيكون وان كنت أيها الناظر في كتابي هذا عالماً

طبيعياً

فإنك لا تجهل ان العلم الذي تخصصت له يبحث عن الظواهر الطبيعية أي عن الطواريء التي تطرأ على الاجسام فلا تحدث فيها تغييراً وهو علم أفاد العقلاء سلمي الحواس والادراك وسلامة التصور شؤوناً كثيرة من شؤون الكون وأسراره التي هدتهم الى عظمته وعظمة خالقه سبحانه وتعالى ، فان كنت أيها العالم الطبيعي من غير هؤلاء أي من الذين لا يعتقدون بوجود الصانع ويذهبون في تعليل الابداع كل مذهب مما تخيله عقولهم وتتصوره أفهامهم فأقل لك : ان علماء الطبيعة الذين نظروا الافلاك وسائر الاجرام السماوية ساجدة في كبد السماء وغير مرتكزة على شيء قد عللوا وجودها بان قوتي الجذب والدفع هما العلتان اللتان حفظتاها وجملتاها محافظات على نظاماتها ومن المعلوم نظراً وعقلاً واستدلالاً ان هتين القوتين المقول بانهما

علتنا بقاء الافلاك كما نرى اما ان تكونا متساويتين واما ان تبكونا مختلفتين فان فرضنا انهما متساويتان بان كان كل كوكب يجذب ويدفع كل كوكب آخر بقدر متساو من الجهتين جذبا ودفعاً فلا بد ان يظل كل كوكب حافظاً لنظامه وثابتاً في مركزه ، ولكن بما ان بعض الكواكب ثوابت وبعضها سيارة فانه ان وافق هذا التعليل من جهة الثوابت فلا يوافق من جهة السيارات بل ان وجود الكواكب السيارة مبطل لهذا التعليل خصوصاً في حال وجودها جميعاً في مدارات مختلفة يتخللها بعض الكواكب الثوابت فلم يبق الا ان نقرض ان تبتك القوتين متخالفتان ، وفي هذا الفرض اما ان تكون احدهما كبرى والاخرى صغرى واما ان يكون العكس فان فرضنا أولاً ان قوة الجذب هي الكبرى وان قوة الدفع هي الصغرى فلا شك في ان قوة الجذب لكبرها تتغلب على قوة الدفع فتظل الكواكب جميعها تتجاذب آناً فآناً حتى تصير مجتمعات في مركز واحد من كبد السماء

وبما ان المشاهد بالنظر المجرد وبآلات الرصد مخالف لهذا الفرض من انهما (الثوابت منها والسيارات) حافظة لنظامها منذ أجيال غابت الاحصاء فيكون باطلا ما فرضنا ، ولم يبق الا ان نقرض ثانياً أن قوة الدفع هي الكبرى وقوة الجذب على العكس أي الصغرى فما لا شك فيه حينئذ ان تتغلب قوة الدفع فتجعل الكواكب تتدافع فتذهب الى أطراف الفضاء فلا تراها حتى ولا بالمرصاد ، وبما أن المشاهد غير ما فرضنا

فنتجح ان هذا الفرض باطل أيضاً . وبما انه لم يتحقق أحد فروض كون القوتين متساويتين ولا كونهما مختلفتين بفرض احدهما صغرى والاخرى كبرى طرداً وعكساً فثبت انها فروض باطلة قطعاً حتى اذا فرضنا صدقتها في غير الكواكب (وما جذب المغناطيس للحديد الا خاصية فيه دون الحديد) ومما يؤيد مذهبنا اليه ان علماء المراسد اثبتوا شذوذ كثير من الكوكب السيارة عن هذه النظرية واختفاء بعضها وظهوره ثانياً واختفاء البعض الآخر وعدم ظهوره وظهور ما لم يكن معروفاً من قبل وهو مثبت لتحقيق ما قدمنا ، هذا مع التفتن لدعواهم ان نظرية الجذب والدفع عامة على سائر الكواكب واذا كان هذا هكذا كما يدعون فكيف يتم ذلك للأجرام التي بينها وبين بعضها ملايين من السنين النورية (١)

واذا فرضنا جدلاً ان نظرية (نيوتن) العالم الانجليزي من وجود قوتي الجذب والطررد صحيحة مع فرض صحة الفروض كلها فن الذي أودع فيها تبتك القوتين سوى موجودها . وهل مع اختلافها في الجرم وخط الاتجاه وتباينها في سرعة السير أو بطئه يتمكن الكوكب ذوالجرم الصغير من انفاذ قوة جذبه أو قوة دفعه في كوكب ذي جرم كبير ليجذب أو يدفع كوكباً آخر يقابله أم كيف يتجاذب ويتدافع ذو جرم كبير مع ذي جرم صغير ، فهذه مثلاً الارض أصغر من الشمس بمليون

(١) النور يقطع في الثانية الواحدة مائة وستة وثمانين الف ميل

وثم أغانة ألف مرة كما قرره علماء الفلك فكيف يسيرها حول الشمس حال
سير القمر حولها يتم لها جميعاً ان تتدافع وتتجاذب مع بعضها البعض
وفي الوقت ذاته مع الكواكب الأخرى ويكون ذلك بقوة واحدة
متساوية مع القطع بان سير الأرض لا يساوى درجة سير القمر نخط
مداره الذي يقطعه حول الأرض أقصر جداً من مدار الأرض حول
الشمس مع تخالف الاتجاه . ان هذه النظرية تؤيد تخبط العلماء في
التعليل وان السر في محافظة الكواكب على نظامها هو من علم كونها
وحده ولا تصل عقول أولئك العلماء لامفردين ولا متحدنين الى كنه
أعماله ولا الى كنه ذاته ، ولو انهم عوضاً من ان يشتغلوا بالنظر في عظمة
الكون بلا نظر الى عظمة مكونه ان يشتغلوا بتقليسه وتمجيده بعد
الاقرار بوجوده وأحدثه بما يضمن لهم الراحة في حياتهم القصيرة
الفانية وحياتهم الآتية الباقية فهو أجدر وأولى ، ولا يفوتنا ان نذكر انه
من تخبطات الفلكيين التي تثبت عدم نظرية الجذب ما يقع من شنود
بعض الكواكب عن السير في مداره ومن هذا القبيل ما ذكره (الدكتور
كروملين) برصد المذنب الذي كان اكتشفه بونز في سنة ١٨١٩ ميلادية
ثم اكتشفه « دينگه » في سنة ١٨٥٨ ميلادية أيضاً من ان المذنب المذكور
من المذنبات التي لا تخضع للأصول الكونية المقررة فيما « يتعلق »
بالمدارات بل تحاول دائماً ان تشد عنها وتتجاوز حدودها المرسومة لها
وان طريقه الذي يريد اجتيازه كما يراه العالم المذكور في صر صده انه سيجتاز

أقرب نقطة الى الشمس في مداره في ١٥ يونيو سنة ١٩٢١ أو قبل ذلك أو بعده بعشرة أيام ، ولما كانت أقرب نقطة من الشمس في مدارى المذنب والارض « تكاد » تكون واحدة في أواخر يونيو فان هذا المذنب « اذا تمكن » من ارجاء اجتيازه الى (٢٧) أو (٢٨) يونيو فقد يستطيع ادراك الارض فتتاح له فرصة التصكك بها وعلى كل حال فان « الأرجح في الاحتمال » و « المقدر وقوعه » هو ان تمطرنا السماء بوابل من الشهب والنيازك . . . الى ان قال و « الظاهر » ان هذا المذنب قد اتمظ « بانغراق زميله » (هالى) من الاغارة على الكرة الارضية كلها فأثر ان لا يقع في غلطة (هالى) من الاغارة على الكرة فهو يريد ان يجتريء بمهاجمة النصف الشمالى من الكرة الارضية فقط ، الى آخر ما قال .
وكم من مرة تنبأ الفلكيون عن حصول مصادمات بين الكواكب تكون سبباً في خراب العالم وعينوا زمنها ولم يحصل صدق ما تنبأوا به ، ونقطع بان ما تنبأ عنه (كرويلين) مما سبق بيانه لا يقع .

هذا وان لنا مع العلماء الطبيعيين الذين يجراون على انكار الصانع والذين هم ممن يعملون استمرار الكواكب على نظامها في مداراتها بقوتى الجذب والدفع سؤال هو « هل هذه الاجرام السماوية ذات حياة أم لا فاذا لم تكن ذات حياة فكيف تسير وتمنافظ على السير في مداراتها وتجذب وتدفع سواها واذا اضطررتم بناء على ذلك ان تقولوا ان لها حياة فهل هي مسيرة أم مخيرة فان كانت مسيرة فلماذا اقتدرت على الشذوذ

عن السير في مدارات ما نسبتهم أو تنسبون له الشذوذ مادام هو مثلها مسيراً
ولهم لم يحصل الشذوذ الاعلى ندرة، وان كانت مخيرة فلم يحافظت على السير
في مداراتها وكيف شذ ما شذ منها عن مداره مادام هو مثلها ولم لم يحصل
الشذوذ من المحافظات على النظام مادامت هي مخيرة . ان ما تقولونه
عن الافلاك تخمين بل رجم بالنيب ولم تصلوا ولن تصلوا الى حقائق
أسرار الكون التي هي من علم مبدعه العظيم وحده كما أسلفنا . فسبحانه
من إله أودع في كل شيء مظهر قدرته وأوجد من دقائق الكائنات
ما لم يحيط به غيره خبيراً لا إله غيره

وان كنت أيها الناظر في كتابي هذا

كيمياءياً

فن المعلوم ان علم الكيمياء يبحث فيه عن الظواهر الكيمياءية
التي تطراً على الاجسام من طريق التحليل والتركيب فتحويلها الى حال
أخرى غير الحال التي كانت عليها قديماً قالوا : ان العناصر البسيطة
التي هي علة التكوين اربعة هي الماء والتراب والنار والهواء وظلوا على
هذا الاعتقاد اجيالاً ، فاما ترقى بالعالم الانساني الاحوال علماً وعملاً بما
بذله الباحثون منهم من الجهود المعظمة بحثاً وتنقيحاً فجدوا على التحقيق
ان كل واحد من هذه الاربعة مركب من عناصر أخرى ، ومع توسعهم
في الابحاث علماً وعملاً خلفاً بعد سلف توسعاً من الخلف فيما وصل الى

يده من مباحث السلف فلم يزل ولن يزال هذا العلم قاصراً مهترقت به الخيال فان كثيرين من علماء الكيمياء طالما قالوا عن شيء انه عنصر بسيط ثم اتضح لهم انه عنصر مركب بعد اشتغالهم فيه بالدرس والبحث، وما ذلك الا لأن العناصر البسيطة فيها وهي أصل لغيرها فلا يمكن مشاهدتها الا في جسم بفعالها لا بكنهها وهو أمر مطابق لما قال بعض العارفين : ان الروح لا ترى في حال التجريد أي على البساطة بل في حال ارتباطها بغيرها كالجسم

هذا في التحليل وأما في التركيب فكثيراً ما يقف في طريقهم شيئان أو اشياء تتنافر ولا تتحد ولا يعرفون سر عدم اتحادها ولا يتمكنون من الاهتداء اليه ، ومع انهم لم يقف لهم بحث ولم تفتر لهم عزيمة ولم ينتهوا من استكشاف حتى يعقبه استكشاف فلا يزالون ولن يزالوا كذلك لأن أسرار الكون تقوت الحصر والعد ولا تقع تحت التذليل جملة لأن بطن الارض أوسع من أن يتناول ما في باطنه بحث واستقراء فليس من مقدور الجزء ان يلم احاطةً بالكل الذي هو جزء منه ، فطالما أعيا العلماء بحث أمور كثيرة لم يهتدوا الى تحليلها ومعرفة عناصرها كما لم يطمئنوا الى تحليلها كما عللوا سواها وهم في كل محاولاتهم في حالي التحليل والتركيب لم يتمكنوا بحال من الاحوال ان يصنعوا على وجه الاتقان ما صنعوا محاكاة لما هو من صناعة الطبيعة ، ذلك كما انهم لم يتمكنوا من تحليل العنصر البسيط الذي تحققوا من بساطته للوقوف على السر الفعال

فيه وعلى علة ايجاده ولا الى معرفة كنهه ، وهذه دعواهم والا فالعنصر البسيط مادام بسيطاً لا تنأى مشاهدته كما سلف البيان الا بفعله في غيره ، فكما ظنوه بسيطاً لم يكن الا مركباً لكنهم لم يهتدوا الى كيفية تحايلة بدليل انهم يقولون ببساطته اليوم فيظهر لهم تركيبه بعد اجيال أو أزمان قصيرة وذلك لجهلهم من قبل بتركيبه وعدم الاهتداء الى تحايله

ولو كان من ينكرون الصانع من علماء هذا العلم الذين تخصصوا له وتفوقوا فيه من سليمى الإدراك والتصور لتساءلوا فيما بينهم عن شتى العناصر البسيطة التي توهمونها بسيطة وعن اختلاف أنواعها وتنوع مفاعيلها وتفاعيلها الكيمايى الداعى لقبول الاتحاد مما يقبل الاتحاد منها وعن كل مركب حلوه فوجدوه مركباً من عنصرين فأكثر هل كل عنصر أوجد نفسه على انفراد ؟ فاذا كان ذلك كذلك فما الذى دعا الى اجتماعهم جملة واتحاداً ليكونوا ذلك الكائن المركب المشتمل على كل منها والذى كل واحد منها علة ايجاد مشترك كما يزعمون مع العناصر الاخرى التى هى من عوامل تركيبه ، وقد يما قال العلماء ان من الاجزاء يتكون الكل ولم يقولوا ان الجزء يكون الكل أى عن قدرة واختيار فيه ، فاذا فرضنا الاستحيل وقطعنا بذلك ويكون كل جزء أى كل عنصر عاملاً من عوامل ايجاد الكائن الكلى فهل الجزء يحيط عاماً بالكل ويحيط عاماً بشركائه من الاجزاء ولها فى نفسها قدرة ايجاد واختيار ، اذا كان ذلك كذلك فلماذا تذلت لعمليّة التحليل المحيل الى الانفصال ، ولماذا لم تجتمع من

تلقاء نفسها بعده أى بعد الانفصال ولماذا تتذلل وتنقاد لمعملية التركيب أيضاً ، فمن هنا يعلم انه لا قوة لها ولا اختيار في أية حال من حالى التحليل والتركيب ، وحينئذ فيجب ان يتساءلوا مرة أخرى عن المؤثر الفعال في ايجاد كل منها منفرداً و ايجادها كماها مجتمعة ، ثم يجب أن يتساءلوا ثالثاً اذا جهلنا السر الفعال في ايجاد وتركيب كائن من الكائنات العديدة التى لا تقع تحت حصر من جملة عناصر فن لنا بان ندرك السر الفعال الذى هو السبب في ايجاد سائر الكائنات ما علمنا منها وما لم نعلم ما وقع تحت قهرنا وسلطاننا وما نحن تحت قهره وسلطانه ، واذا فرضنا المستحيل جدلاً وقلنا ان العناصر البسيطة مما توهموا بساطته لها القوة والاختيار فلماذا بعضها حال الاتحاد بغيره لغرض الوجود يختار ان يكون كائناً دينئاً حقيراً ولا يختار ان يكون كائناً جليلاً عظيماً ، ولماذا يختار ان يكون تحت تأثير غيره ولا يكون غيره تحت تأثيره هو ، واذا قطعنا وحكمنا بانه لا قوة ولا اختيار لأحد العناصر تبمته على ان يكون موجوداً متحداً بغيره ولا لأن يختار الشكل الكلى للكائن الذى هو جزء منه افلا يصح حينئذ ويجب ان نحكم ونقطع بانه لا بد من عامل فيها جميعاً يكون كلى القدرة كلى الاختيار مجهول لنا من حيث كنهه وحقيقته معلوم بجلائل أعماله وعجائب مصنوعاته وانه هو الصانع الحكيم وهما دعوه باسم من الاسماء أو نعتوه بنعت من النعوت

ان مذهب دارون الانجلىزى قد علل الكائنات بالنشوء والترقى

وحاول اثبات ذلك فقال انها سلسلة حلقات تبتدىء من الأدنى وتنتهى الى الأعلى وقال بانقرض بعض حلقات ، ثم لما انتهى من أبحاثه جمعاء قال إن أصل الكائنات كلها من القوة والمادة وارتباطهما معاً وهو تعليل مقبول عقلاً ولكن يجب ان نسأله أى انت نسأل مروجى مذهبه ومعتقدي صحته ، ما الذى وجد منها أولاً القوة أم المادة أم هما وجداً معاً ، فان قيل بوجودهما معاً فهل وجداً بالصدفة ومن تلقاء أنفسهما أم أوجدتهما موجوداً فان قيل بهذا فالموجود لهما هو ما ندعوه بالإله ، وان قيل وجداً بالصدفة فما الذى حملهما على الاتحاد وهل هو عيىل كل منهما إليه أم بتغلب أحدهما على الآخر فان قيل بالأول فحيث انتهينا الى شيئين متحدين هما علة الأيجاد فهما كالشيء الواحد إلا واحداً لكن استحالة ذلك التركيب معقول اذا استحال اذعان كل منهما للآخر وتوقف نفوذ كل واحد منهما على الآخر ، واذا قيل بالثانى فتكون القوة هى صاحبة سر الأيجاد وتكون هى وحدها علة العمل فى التكوين أى انها هى قوة مبدع الكون ومكوّنه على هذا النظم البديع الذى له الغلبة والقهر على كل شيء وهو الواحد الأحد

أيها العالم الكيمياءى انظر وفكر فى أمر النحلة كيف ركبت من مختلف الزهور عسلاً وكيف كوّنت بيوتها من مادة قويعة التركيب بدون معمل كعمالك وبلا كافة ومشقة مما تعانيه أنت وبلا آلات وأدوات غير يدها وفيها

أيها العالم الكيميائي انظر وفكر في أمر دودة القز كيف تصنع حريرها وهي دودة ضعيفة فتكسوك باستخدامك في العناية بشأنها وشأن مصنوعها . وانظر وفكر في أمر العناكب كيف تصنع شبكتها من خيوط واهية ولكنها تصطاد بها رزقها من الذباب وتكفي لجمالها وإيوائها وكيف انها لا تختار الأزوايا الأمكنة ، فان كان ذلك عن نظر وفكر وتبصر منها جميعاً فقد أشبهتنا ولا معنى للقول باستحالة العقل عليها ، وان قلت بأنها عسيرة العقل والادراك فكيف أتت بمصنوع يعجزك عمله ؟ إن في ذلك لعبرة لأولى الأبواب

أيها العالم الكيميائي ان جسمك مركب من دم ولحم وعظم وعروق وامشاج وعضلات وخلايا وكاها مركبة من عناصر متنوعة فهل يمكنك أن تصل بمادتك الى ما يحفظها من الفساد والانحلال لتظل كائنًا حياً ؟ لا بد من أن يكون جوابك « لا » فاذا كان جوابك ايجاباً فاماذا لم تفعل وان كان سلباً فلم لم تعترف بالصانع الحكيم فتعبده وتمجده وتشكره لتكون من الفائزين فهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ايجاداً واعداماً واعداماً بعد اعدام وهو القادر على كل شيء لا إله غيره وان كنت أيها المطلع على كتابي هذا عالماً

فلكيا

فاعلم ان الناس قديماً كانوا يظنون انه من المستحيل وجود شيء في

الفضاء كبيراً كان أو صغيراً دون أن يرتكز على شيء لأنهم كانوا لا يعلمون شيئاً عن الفضاء الذي لا نهاية له اذ ما كانوا يتفكرون فيما يكاد يفقأ عيونهم من العوالم الكثيرة السابحة في الفضاء فكان البعض يعتقد أن الأرض محمولة على قرن ثور كالمصريين قديماً والبعض كان يعتقد أنها محمولة على ظهر فيل كالهنود القدماء وهكذا إلى آخر ما كانوا يعتقدون وظل هذا وذاك من الاعتقادات الفاسدة راسخاً في الأذهان حتى ازلتها تحقيقات العلماء فلم يبق مثل تلك المعتقدات الا لدى فئة قليلة من الناس هي كالسدم الآن، ولم يبق إلا أن فريقاً من علماء الشرق من غير المسلمين غالباً يعتقدون بثبوت الأرض ودوران الشمس بخلاف علماء الغرب الذين يعتقدون العكس أي ان الأرض سائرة ودائرة حول الشمس التي يقولون بأنها ثابتة بمناسبة حفظ الابعاد بينها وبين عالمها من سائر الأجرام والا فهم يقولون بأنها سائرة بما يتبناها إلى غرض مجهول، وان اعتقادهم هذا لا يختلف في شيء عما ورد في ديننا الشريف فان القرآن الكريم يقول: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء) وبديهي أنه مادامت الجبال سائرة وهي بالتحقيق أجزاء من نفس الكرة الأرضية فعلى هذا تكون الكرة ذاتها سائرة على التحقيق، يشير إلى هذا قوله في القرآن الكريم (رب المشرق والمغرب) وقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) وقوله عز وجل (رب المشارق والمغارب) وما ذلك إلا لأنه بالنسبة للجرم

لكل الأرض فلها مشرق واجد ومغرب واحد ، وبالنسبة لصفحتي
لكرة فلها مشرقان ومغربان لأن لكل صفحة مشرق ومغرب ، وبالنسبة
لكل قطر من الأقطار أو بلد من البلاد فلها مشارق ومغارب عديدة اذ لكل
واحد من تلك الأقطار والبلدان مشرق ومغرب خصوصيان يخالفان
مالذي غيرها من حيث المواقيت ، ولولا كرويتها ودورانها حول
الشمس لما كان يحصل ذلك ، وأما من جهة الشمس فيقول (والشمس
تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) ومن هذه الآيات
نتحقق انه ليس من فلك ثابت مطلقاً إلا بنسبة ما سبقت الاشارة
اليه كما هو الشأن في الاعتقاد عند علماء الغرب الفلكيين ، ويؤيد هذا
المعنى قوله تعالى : (والليل نسلخ منه النهار) وقوله تعالى (فبحرنا آية
الليل) وان الليل والنهار في الآيتين ينصرفان إلى معنهما اللغوي
المعروف وإنما إلى معنى النور والظلام أي الأجرام النورية المضيئة
بنفسها كالشمس والأجرام المظلمة بذاتها المضيئة بغيرها أي بواسطة
الشمس كالأرض والقمر إلى غير ذلك من المعاني التي لا يناقضها علم
أولئك العلماء .

ومن المعلوم ان كل انسان متى وصل الى سن التمييز فأول ما يلفت
نظره السماء بما اشتملت عليه صفحاتها من سائر الأجرام الفلكية
المنظورة بالعين المجردة ، وإذ يكون في سن الفطرة أي في دور الاعتقاد

الفطرى السليم الخالى من المعتقدات العقلية المختلفة يعتقد لأول نظرة أن هذه الكائنات الفلكية مالكا هو الذى صنعها وكونها ، ولكن تلك المعتقدات العقلية هى التى توجد عند الناس بعد ذلك الدور الفطرى مختلف المعتقدات عن حق وعن باطل وعن خليط بينهما باختلاف تلك النقول ومصادرها وسلامتها من الخلط والخطأ أو اشتغالها عليهما وذلك لاختلاف المصادر فى الصدق والكذب والصواب والخطأ وسلامة الإدراك والوهم وتباين درجات القوى العقلية والعامية

ومن المعلوم الواضح لديك أيها العالم الفلكى ولدى كبار علماء الفلك أن كلاً دون أسلافكم ودونتموه أنتم فى كتبكم إلى الآن وكما رصدتموه بالمرصد بواسطة التليسكوب أو السبكتروسكوب وقررتهم فى تلك الكتب يفيد عظمة الكون فقد قلتم ان أحد مجاميع النجوم التى يظهر ان الشمس تنيب فيها شهراً بعد شهر وهى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان الخ فى كل منها من ثلاثين ألف شمس إلى مائة ألف شمس ؛ وكل شمس منها كرة نارية مستمرة الدوران على محورها وتنبير ما حولها من الاثير ، وقد يقتضى اجتياز هذا المجموع مائتين ألف سنة نورية ، ومن المعلوم عند العلماء أن النور يقطع فى الثانية الواحدة مائة وستة وثمانين ألف ميل وبناء عليه فالنور يقطع فى السنة الواحدة حاصل ضرب ١٨٦٠٠٠ فى ٦٠ ثانية فى ٦٠ دقيقة فى ٢٤ ساعة فى ٣٦٦ يوماً أى ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فى ستة كترليوناً وسبعة عشر

بليوناً وتسعمائة وثمانية عشر مليوناً وأربعمائة الف ميلاً، فكيف يكون حساب ما يقطعه النور في المائتين ألف سنة التي فيها يجتاز النور المساحة الفضائية التي يشغلها ذلك المجموع المملوء بالشموس والسيارات الكثيرة الأخرى ، وقلم أيضاً إن كل شمس تدور حولها سيارات كروية وتلك السيارات الكروية تدور على محورها أيضاً .

إن ما أخذناه هنا من أقوال الكيم التي بسطتموها وأيدتم صدقها يغنيننا عن الاكثار في بيان عظمة هذا الكون العظيم فهو يكفي لأن يوجب عليكم أن تتعرفوا بعظمته من تلقاء أنفسكم ، مادام أن هذا الذي نقلناه هو تقريركم وتحقيقاتكم عن بعض ما فيه خصوصاً وقد ثبت أنه مستمر على نظامه البديع منذ وجد من أجيال تفوت المد والاحصاء الى وقتنا هذا ، وعلى هذا فنسألکم عن هذا الكون العظيم بما فيه من شموس وسيارات وما يبدو مما لم يكن معلوماً من تلك الشموس والسيارات مما تخبروننا به في المجرات المتعددة أنا بعد أن بواسطة مرصدكم هل قام بنفسه بكل مشتملاته بدون موجد أم وجد بمؤثر آخر؟ انکم هم اعلائم حدوده وبنيتموه على أسباب فلا بد من أن تنتهوا الى سبب مجهول لکم من حيث كنهه وحقيقته معلوم بأعماله ومعائب مصنوعاته وتقبل منکم أن تسموه بما تشاءون من الأسماء وتنعتهوه بما أردتم من النعوت ، والا فلايس لمنکر وجود الصانع أن يقول ان كل كائن من هذه الكائنات العظيمة أوجد نفسه أى قام بنفسه بلا موجد لما بينهما من الارتباط وكون

بعضها تابع للبعض الآخر وكون كل واحد منها مسخر تحت قهر الحركة وما يقوم بنفسه لا يكون مقهوراً ولا تابعاً لغيره بل يكون كلى الارادة كلى الاختيار، فمتى لم يكن كذلك فلا يكون قائماً بنفسه أى بلا موجد، ولولا ذلك لما علمتم كونها سابحات فى الفضاء ومحافظات على نظامها فى سائر حركاتها بعملة قوتى الجذب والدفح جرياً وراء العالم الطبيعى، الانجليزى فقد قلتم بشذوذ كثير من الأجرام عن قانون حركته التى تعودتم نظرها بالمراسد كما قلتم عن مذنب « هالى » وغيره فضلاً عن اختلاف مدارات تلك الشمس والسيارات طرداً وعكساً وتنوع أجرامها وتباين ابعادها ومغايرة مقادير قوتى سيرها فكل ذلك لا يؤيد تلك النظرية بل يجعلنا نستخلص مما ذكرتموه كله ان سر استمرارها على نظاماتها بيد مكوّنها . وبما لا ريب فيه أن من يقول غير هذا وينكر وجود الصانع الحكيم لا بد أن يكون مجنوناً بجنون خاص نسميه جنون فساد الاعتقاد الناتج عن عدم سلامة التصور مهما كان القائل به فيلسوفاً ومهما يأت بالمجائب لأن الانكار مخالف للعقل الذى يهديننا إلى السبيل الواضح ومؤدّ إلى الاستمرار على البحث والتعميل وراء ما ليس من قدرة النوع الانسانى دركه ولا الوقوف على كنهه وحقيقته . فسبحانه من إله لا تكفى سائر لغات العالم للتعبير عن عظّمته ومجده لا إله غيره .

وان كنت أيها الناظر في كتابي هذا

طبيياً

فكنت نطاسياً حاذقاً في صناعتك محيطاً بدقائقها فانك لا تكون في حاجة الى اطالة الشرح والبيان لإفباتك الى بديع الصناعة في الجسم الانساني والحيواني وما أودع فيهما من دقة التركيب التي تنذر بأقل تأمل انه لا بد من أن يكون مخلوقاً لصانع قادر حكيم خصوصاً متى كان المتأمل طبيبياً اذ يكون أعرف من سواه بقدرة ذلك الصانع لكن خشية أن تكون ممن ينكرون الروح أو ممن لا يعترفون بوجود الصانع وقليل ما هم فأقول :

إذا أردنا أن نعرف ما السر الفعال الذي يجعل الانسان يتحرك ويفكر ويقول ويعمل فلا بد من أن يتوجه نظرنا

أولاً — الى ثلاثة عوامل رئيسة هي المخ والقلب والدم ، فان المخ اذا أصابه خلل يمنع من استمراره على أداء وظيفته فالانسان يموت وقد قال الأطباء عمومًا ان المخ مركز الاحساس ولكنهم لم يقدرُوا أن يملؤوا سريان الاحساس منه الى المحل الماموس وعودته اليه ولم يعرفوا قدر الزمن الذي يتم فيه الاحساس بالدقة وكما دونوه في ذلك يقبل المناقشة لأنه لا يشفي القليل ما أوضحوه من التمليل ، وأما القلب فكذلك اذا اعتل وفسد أو اذا لم يصب بأذى ولكنه وقف عن الحركة وسكن فان الانسان يموت ، وأما الدم فمثلها اذا فسد أو استنزف من الجسم فان

الإنسان يموت ، فدلّت إصابة أحدها في حال سلامة الآخرين وتسبب الموت عنه ان لم يكن واحدا منها عاملا في الحياة وحده خصوصا عند ما نرى أنها لو بقيت جميعها في سلامة من العطل وانقطع التنفس بسبب من الأسباب فالإنسان يموت

وثانياً — الى ان التنفس زفير وشهيق فاذا تمت عملية أحدهما ولا تتم الأخرى فلا تتم وظيفة التنفس التي عليها تتوقف وظيفة الرئتين اللتين اذا أصيبتا أو أصيبت احدهما فتعطلت عن تأدية إحدى حركتي الانقباض والانبساط اللتين عليهما تتوقف حركة الدورة الدموية التي هي حركة باطنة معاولة لسلطان شيء من الخارج فلا بد من أن الإنسان يموت ، فهل مع هذا البيان يصح لنا أن نقول ويكون قولنا صحيحاً معقولاً أن الجميع هو سر الحياة ؟ كلا اذ في تلف أحد ما ذكرنا فقدان الحياة .

وثالثاً — على أنه قد تكون جميع الأعضاء التي يعملون بها الحياة سليمة والإنسان يموت متى انحطت أو ارتفعت الحرارة في الجسم عن الدرجة المادية التي درجتها عند أهالي المنطقة الباردة غيرها عند أهالي المنطقة الحارة ، سواها عند أهالي المنطقة المعتدلة ، فهل الحرارة هي سر الحياة

ورابعاً — الى اننا اذا قدرنا وفرضنا أن لا يكون شيء من كلاً أو ضمناً من الطوارىء على الجسم ولكن منع الإنسان من الغذاء

والشراب فالإنسان يضعف ويموت ، وإذا كان هذا فهل من الحق أن نعتبر الغذاء والشراب شريكين مع جميع ما ذكرنا في سر تكوين الحياة وإذا كان هذا فلماذا لا يموت الإنسان وقد انقطع عن الغذاء والشراب في حوادث النوم الطويل مدة طويلة ، ولماذا إن رجلاً في الهند تمتنع عن الغذاء والشراب امتناعاً كلياً بل يدفنون في التراب محرومين من نعمة التنفس زيادة على حرمانهم من الغذاء والشراب ولا يموتون بعد أن يخرجونهم ، فهل لم يكف التأكد من حصول هذه الحوادث الخارقة وهل لم يكف التأكد من عدم صدق نظرية أن ما ذكرنا كاله أو بعضه هو سر الحياة ويكون مرشداً نافعاً يعمنا أن سر الحياة الساري في الجسم هو شيء آخر غير مدرك لنا إلا بكوننا به ندرك ونفهم وبه نريد ونعمل وبه نحس ونشعر

وخامساً — إلى أنه إذا كان استمرار سلامة أجزاء الجسم كلها مع استمرار توفر الغذاء والماء وكل شروط الصحة غير موصل إلى استمرار الحياة فهلا يعلم لنا بالضرورة أن المدد المؤدى إلى الحياة هو الروح وأنها مغايرة للجسم الفاني

وسادساً — إلى أنكم والعلماء الطبيعيون تقولون إن المادة لا تنعدم ولا تتجزأ أي إن الجسم ينحل وتعود عناصره المشتمل هو عليها إلى العناصر الماثلة لها الكائنة في التراب ، فهل من سلامة العقل أن نعتقد بأن الذي يفسد وينحل ويعود إلى عناصره الماثلة له يكون باقياً خالداً

ولا نعتقد بأن ذلك السر الذي وضع انه ليس من مقدورنا الوقوف على حقيقته يكون باقياً خالداً كبقاء المادة وخالودها كما تقولون ، والا نعتقد بأن ذلك السر امره بيد ذلك الصانع الحقيقي للكائنات كلها ، خصوصاً وانكم لا تقدر ان تعلموا كيف ان الحياة ليست على نظام واحد في كل كائن حي فمنها ما يعيش في الهواء فقط ومنها ما يعيش في الماء فقط ومنها ما يعيش فيهما معاً على السواء مما تبرون عنه بنى الحياتين ، افلا يكون هذا مقنعاً ان عامل التنوع في الحياة وكيانها ومصور الأجسام على اشكالها المختلفة هو وحده خالقها ومبدعها .

وسابماً — على انكم قررتم ان الحواس في الانسان خمس فلماذا هي في بعض الحيوانات زائدة على خمس كالحاسة السادسة في الحمام التي بها يعرف مقره من تلقاء نفسه مها كان بعيداً ولماذا هي في البعض الآخر ناقصة عن خمس ككثير من الحيوانات والحشرات ، ولماذا بعضها في بعض الحيوانات اقوى كحاسة الشم في الكلب مثلاً ، ولماذا ان النبات يحس كالانسان ومادة الاحساس في بعضه اظهر ومنه ما يشارك الانسان في اكل اللحوم كالنبات الموجود في جهات امريكا والنبات المسمى بمصيدة الزهرة وهو نبات حسن المنظر له زهر ابيض على حواشي اوراقه اشواك دقيقة كالأهداب عليها سائل كالعسل يقع عليه الذباب فتنتوى عليه اوراق الزهر ويشتبك بعض اهدابها ببعض وتضغط عليه حتى تسد له الحياة وتمتصه ولا ينشر ورقها كما كان الابد

تمام هذه العملية . ولماذا ان المغناطيس به حاسة تجذب الحديد ولا تجذب غيره ولماذا هذا الاختصاص ، فهل هذا من خواص الأجسام أم من خواص الأرواح أى القوى العاملة فيها ، وعلى أى حال فلا بد من أن يكون هذا من قوة أخرى خارجة عنها جميعاً هى قوة الخالق العظيم وثامناً — انكم قد شرحتم الجسم الانسانى والحيوانى وعرفتم دقائق تركيبهما وحاولتم شفاء أمراضهما التى تدعو الى فسادها فاماذا يظل الموت يختطف المرضى من بين أيديكم قهراً ولماذا لم يكن من قدرتك أن تتمكنوا من ايجاد ما تنقوا به فساد الجسم الحى حتى لا يموت ، ولماذا لم تتمكنوا من حفظ اجسادكم لكي تطيلوا أعماركم اكثر من أعمار الذين يجهاون طبكم وطرق علاجكم على الأقل وليس لأجل أن لا تموتوا . وتاسماً — الى مختلف الصور والأشكال فى أنواع الحيوانات وما تحتها من الأجناس ، هل كل نوع وجد بصورته وشكله اختياراً أم اضطراراً فان دعوى الاختيار يدفمها كون بعضها على شكل ذئب والخنثار لا يرضى لنفسه الا الكمال ، ومع هذا فهل فهتم مع هذا سر ما بين القط والفار من العداوة والبغضاء أو ما بين الكلب والذئب أو ما بين القط والثعبان حالة اختلاف تركيب اجسامها حجماً وشكلاً وصورة وهل احطتم خيراً بما بين الحشرات والحيوانات المتعادية منها والمتحابة ولو على جانب صغير من الاحاطة ، وهل استطعتم ان تقبضوا على الحيوانات المتناهية فى الصغر وتشرحوها وتعرفوا دقائق تركيبها

ومعرفة مقدار القوى العاملة فيها وسر وجودها ووجوه نفعها وضررها
وهل اخصيتموها عدا وانتم كل يوم تمشرون على جديد من أنواعها ،
لا شك ان ذلك ليس من طاقتكم وحولكم وقوتكم ولا ان تعرفوا
كيف تتغذى وكيف تمش و كيف تتزاوج وتتوالد حالة ان سن الابرة
يحتوى الملايين منها وان الواحد منها يعمل على سن الابرة سياحة
طويلة كسياحة عظيمة لسائح على سطح الكرة ، فهل هى على هذا
النحو اوجدت نفسها فمن المعلوم انكم تقولون ان جسم كل حيوان
مركب من حويصلات صغيرة وان كل حويصلة تلد حويصلة مثلها
ثم تموت وتندثر فى ساعة او ساعات أو يوم او ايام او عام او اعوام
وهكذا وان حياة الفرد من اى نوع من انواع الحيوانات مثل حياة
الحويصلات أو الخلايا التى يتألف منها فلماذا وانتم تقولون انها اوجدت
نفسها كيف لم تختر ان تبقى بدون فناء وكيف لم يختر كل فرد منها ان
يكون متسلطاً لا مسطاً عليه ، ان اليقين كل اليقين معرفة ان المختار يكون
كلى الادارة كلى الاختيار ولا يكون كذلك الا الواحد الحى الخالق
المصور لسائر الأنواع لأنه لو لم يكن الأمر كذلك فلماذا هذه
الكائنات تتنازع البقاء ولا تقدر عليه ، وكيف اننا نشاهد فى الأطعمة
الفاسدة والفواكه التى فسدت كائنات صغيرة مثولدة فيها فهل هذه
أيضاً اوجدت نفسها أم هى من الكائنات الموجودة من ذات تركيب
تلك الأطعمة والفواكه قبل أن تفسد وقد آن لها بفعل ما أودع فيها

من سر تكوينها الذي نجعله بيد ذلك السبب المجهول الذي يلجأ اليه المنكرون دائماً في تعليلاتهم وهو هو المجهول من حيث كنهه وحقيقته المعلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته فهو المحي المميت القادر الحكيم وحده لا اله غيره

وإذا كنت أيها الناظر في كتابي هذا

عاملاً ادارياً

﴿ أي ممن يتعاونون الحكم على الناس ﴾

فاعلم وفقني الله تعالى وإياك الى الحق وأيدني وإياك بروح منه انك في مركز الذي تشغله من إحدى وظائف الحكم على الناس حلقة من حلقات متصل بعضها ببعض تكون سلسلة رجال من أمثالك هم شركاؤك في اجراء الأحكام وان كل فرد من الافراد الذين تتكون منهم هذه السلسلة يغبط أو يحسد من فوقه ويتمنى فضلاً عن درجة أرقى من التي هو فيها أن لو صار طرف السلسلة الاخير من الجهة العليا ، وما كنت تحلم وأنت طفل بل ولا تظن أن تكون حاكماً يوماً ، بل ربما يكون راق في نظرك صاحب منصب أو ذاجاه حين شاهده يتيه بلسطانه على من تحته فتمنيت لو كنت محله فقد كنت مثلك وأنا تلميذ صغير أتمنى لو أكون مثل معلمي في سعة العلم ، فبحقك عليك هل ترى ان كل شخص ممن هم فوقك وممن هم تحتك حاصلوا على مركزه باستحقاق عن

كده وجده ومعلوماته وانه قائم بواجبات منصبه اتم قيام ، لا اظنك
تجيدنى الا سلباً بدليل ما نشاهده من سقطات أصحاب المناصب فى كل
بلد من البلاد ومصر من الامصار ، وما ذلك الا لاختلاف ما فطر عليه
الناس من اختلاف فى الأخلاق وتباين فى الاعمال والاميال وتغاير فى
درجة العلم والتصور والنشاط الى غير ذلك من مختلف الشؤون والاحوال
هذا مع كلما تبذله كل مملكة من الممالك فى انتقاء رجالها من حيث النشاط
والكفاءة والاستقامة وسائر الخلال الحميدة ، فما السر الفعال فى كل هذا
ياترى ، أهو التربية البيتية أم المدرسية أم الوسط أم الطبع الجبلى أم غير
ذلك ، فان كان التباين ناجماً عن التربية البيتية أفهل فى امكان المخلوقات
أقوام وأضعفهم أن يحملوا تلك التربية عاملة بالمساواة فى من عنوا بتربيتهم
فى كل بلاد العالم بأن يجمعوا الآباء والامهات فى درجة واحدة متساويين
من جهة المنشأ والمآل وسائر الخصال ، ان هذا مستحيل بدليل ما هو
مشاهد فى كل بلد ومصر ، وان كان عن التربية المدرسية فكذلك الحال
ليس فى الامكان أن يتساوى المعلمون فى درجات العلم والنشاط والاخلاق
والاستقامة والتفهم والتفهم والمحافظة على الواجبات ولا فى أن يتساوى
التلاميذ فى قبول النصيح والارشاد والاجتهاد والاستعداد والذكاء ، ان
هذا مستحيل أيضاً بدليل ما هو مشاهد فى كل جهة من الجهات ، وان
كان عن اختلاف الوسط فى سائر أقطار الارض فهذا من باب الأولى
ليس من قدرة الناس أن يكونوا متساويين فيه لوجود التباين فيما جبل

عليه كل شخص اذ لولا هذا الاختلاف ما وقف بين يدي أحد الحكام
أحد من الخصوم كما قيل
لو أنصف الناس أراحوا القاضيا وبات كلُّ عن أخيه راضيا
وبناء على هذا فعلمنا أن نتساءل عن ذلك وعن اختلاف طرق
الاحكام في كل مملكة من ممالك الارض لاختلاف القواعد والقوانين
التي يبنون عليها تلك الاحكام ، وما كان كل مملكة تستحسن أو تستقبح
ما عند الاخرين منها الى آخر ما يخطر على البال من كل ما يقال في مثل
هذه الاحوال

اننا اذا دققنا النظر بامان وانصاف لتحققنا ان السر الفعال في
ذلك كله ليس من الخلق مطلقاً بل أنه أمر خارج عن طوقهم ، اذ ان
مجموع رجال الحكم في كل مملكة لا يريدون أن يكونوا أقل من غيرهم
تقدماً ونظاماً وكالاً ، وان ذلك بيد قادر مجهول من حيث كنهه وحقيقته
معلوم بأعماله وعجائب مصنوعاته لا اله الا هو الحكم العدل اللطيف
الخبير

وان كنت أيها الناظر في كتابي هذا من غير من خاطبنا أي
لا فلاحاً ولا صانعاً ولا أي فرد ممن خاطبناهم فتحتاج الى

دليل عام

﴿ على وجود الصانع القديم سبحانه وتعالى ﴾

فها أنت في حال اطلاعك على هذا الكتاب موجود فاذا سألتك

عن وجودك هذا هل هو وجود اختياري أم اضطراري؟ فلا بد من أن تجيب
بأنه وجود اضطراري اضطراراً إليه أبوالك من طريق التناسل ، وهما أنت
بعد وجودك هذا قياساً على المشاهد سينتهي إلى فناء اضطراري أيضاً ،
حالة أنك وكل انسان حي يكره أن يموت ويتمنى لو بقي حياً حتى أننا
نرى الاحياء يتبادلون الدعاء بعضهم لبعض الآخر بطول العمر ، فدل
ذلك على أن الناس حتى سائر الحيوانات والنباتات تحت بداية وجود قهري
ينتهي بفناء قهري مثله ، وأنها جميعاً حال وجودها في الحياة تحت تأثير
الاعراض من حركة إلى سكون ومن صورة إلى غيرها ومن حال إلى
سواها وان كلا منها يزول فثبت بدليل ما تقدم أنها حادثة بفعل غيرها
فاذا توهم متوهم ان الكائنات قديمة وأنها أوجدت نفسها ففي هذه
الحال إما أن تكون الاعراض التي جعلتها تحت القهر والسلطان والاضطرار
موجودة معها واما ان تكون طارئة عليها بعد وجودها ، فاذا فرضنا
الاول فنكون أثبتنا لها الاختيار ، والمختار لا يضع نفسه تحت القهر
والاضطرار بداية ، فثبت فساد فرض ان الاعراض وجدت معها ،
واذا فرضنا الامر الثاني فقبل ان الاعراض طرأت عليها بعد وجودها
فلا بد من ان تكون تلك الاعراض طارئة عليها بفعل وتأثير غيرها
فتكون حادثة ولها محدث أوجدها من الدم ، وذلك لانه لو لا ربان
السفينة ما تحركت الآلة التي تسيرها ، ولو لا ان واضعاً وضع في احدى
كفتي الميزان ما يثقلها فيجعلها تنخفض إلى أسفل وترتفع الأخرى إلى

أعلى لظلمتا متساويتين ولما رجحت احدهما فان الترجيح بلا مرجح لا يمكن ، وبالأجمال لولا المؤثر ما تأثر الاثر ، فثبت بهذا صحة الفرض الثاني وثبت المطلوب من ان الكائنات بما حوت حادثه ولها محدث كما سبق البيان ، وبما ان نظام الكائنات عجيب ومدهش ومستمر فيبدل على ان محدثها إله واحد قادر فعال كلى القدره كلى الاختيار أزلى أبدي لا معبود غيره ولا امر الا امره جل شأنه وتعالى مجده

الفصل الاول

في

بيان اختلاف الناس من حيث معرفة الصانع القديم سبحانه وتعالى اعلم وفقني الله تعالى واياك اني لم اضع كتابي هذا للجدل ولم اخص به قوماً دون آخرين كما اني لم اقصد به الخط من مقام فئمة من الناس مهما كان اعتقادها بل لبيان ما اعتقد انه الحق وانه السبيل الواضح للوصول الى معرفة الحق سبحانه وتعالى ، ولقد حاولت بما مر عليك اثبات وجود الروح وانها خالدة وان للكون صانعاً قديراً واحداً لا اله غيره ، وارانى قد حاولت فيما حاولت ان ادل الناس على ما لا يحتاج الى قليل ولا كثير من الادلة والبراهين وما هو أوضح واظهر من الشمس لدى عينين بل وللأعمى ذى البصيرة ، فأن كنت أيها المطلع على كتابي هذا من الذين يرون أن الله تعالى في كل شئ وفوق كل شئ ومنه كل شئ وبه كل

شئٌ وأنه هو المعلوم المجهول أو المجهول المعلوم الذي إن أردنا أن نقف على حقيقة كنهه تمام الوقوف كببحثنا في الجوهر والمرض فقد جهلناه والذي إن أردنا أن ننظر في عجائب مصنوعاته وجلال أعماله عرفناه فوجدناه ورأيناه دون افتقارنا إلى شئ من تلك الأدلة والبراهين ، فإن كنت من هؤلاء فاعذرني وسامحني فقد كتبت ما كتبت عن الحضرة العلية المحيطة بالأكوان الغنية هن التعريف والبيات لقوم مفتقرين للبرهان حتى على البديهيات ، لعدم عناية من قاموا بتربيتهم بأمر تعليمهم الدين وقصر همهم على تنقيفهم بما يكسب أمر الدنيا لا غيرها في زمن كثرت فيه حرية الفسق والزندقة وإطلاق القول بما يضاد اليقين دون مبالاة أو خوف ، واني لأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون سبب الهداية لكائن من كان من بنى الانسان الذين أنا فرد من احقرهم ، وقد أوضحت بطرق شتى من البراهين على ان للكون صانعا قديما قديرا ، وبقي ان أبين كيف اختلف الموقنون بوجوده سبحانه وتعالى من حيث معرفته ، وايضاح أى العقائد هي عقيدة المهتدين فأقول :

اختلف الناس من حيث معرفة هذا الخالق العظيم جل وعلا فانقسموا الى قسمين : موحد وغير موحد ولا خفاء في انهم بهذا الاتقسام فريق على الحق وفريق على الباطل ، فأما الموحدون فقد انقسموا الى قسمين : موحد منزه وموحد غير منزه ، فأما أهل القسم الأول من الموحدين فهم الذين قالوا عنه انه سبحانه وتعالى إله تنزه عن

الشبيه والمثيل، وأنه لا يعرف كيف هو إلا هو فهو موجود لا كالموجودات التي تدرك بالحواس أو التي تدرك بنور العقل من الموجودات الغير منظورة التي مرت الإشارة إليها فيما سلف ولكنه موجود لا يتحيز في مكان ولا يمر عليه زمان ولا يشاهد بالعيان وإن العجز عن ادراكه عين المعرفة والبيان، وأنه واحد لا يتعدد أحد لا يشاركه في الواحدية أحد، وأنه موجود بنفسه دون افتقار إلى مورد أزل لا بداية لوجوده، أبدى لانهاية لوجوده كذلك، وأنه غني عن كل ما يفتقر إليه كل موجود، وإن كل موجود مفتقر إليه وأنه منعموت بنعمت الكمال، وأما أهل القسم الثاني فقد اتقسموا إلى فرق شتى، فمنهم من قدس النار والشمس والنور الكائن عنهما بجامع الشبه بينها وبين الله تعالى في القوة والسناء كما يزعمون، ومنهم من نصب التماثيل ليصور تحت الحس ما غاب عنه من أوصافه تعالى، ولهذا تنوعت لديه تلك التماثيل بتنوع المنازع والتخييلات، ومنهم من قدس الحيوانات كالثور والفيل الأبيض وبعض الحشرات السامة بدعوى أنه لو لا أن للخالق سبحانه وتعالى عناية خاصة بها لما كانت ممتازة بالقوى والمزايا كما يزعمون، وبالأجمال فأهل هذا القسم كثيرون غير من ذكرنا وهم بين مشبه فقط ومشبه مجسم معاً وأما غير الموحدين فقد اتقسموا أيضاً إلى أقسام شتى، فمنهم من قال بالحلول فقط ومنهم من قال بتعدد الأصول الذي تركب منها الآله كما زعموا، ومنهم من جمع بين القول بالحلول والاتحاد والقول بتعدد

الأصول في وقت معا ، بزعمهم ان مذهبوا اليه عين التوحيد ، وفوق ذلك ان كل واحدة من هذه الاقسام تخطئ ، غيرها وتجهله بانها هي وحدها على الحق ، وأعجب منه انهم يدعون مخالفيتهم الى اعتناق مذهبهم ويبدلون غايات جهودهم في ذلك . وبناء عليه فأعلى وأنزه المعتقدات عقيدة الذين يقولون عن الله تعالى انه لا يعرف كيف هو الا هو ويقفون عند حدود الادب في جانب الله تعالى

وأما سبب الاختلاف فهو :

أولاً من وجه عام نقول : انه من المعلوم ما كان عليه الناس من الجهل العظيم في المصور الأولى فكان ذلك الجهل داعية سؤ التفاهم بين الرسل والامم الذين أرسلوا اليهم ، وللتدليل على ذلك أذكر ما سمعته من أحد علماء الهند البوذيين المدعو « تولوجرام » اذ علل لي سبب اتخاذ التماثيل عند اتباع بوذا انهم سألوه ذات يوم ان يصف لهم الخالق جل وعلاق قال لهم تقريباً لا فهمهم وقد تناول من الارض حصة كشكل الكرة : هل لهذا الحجر طول وعرض فقيل لا فقال لهم هكذا الخالق ، وقال لهم مرة تقريباً لا فهمهم أيضاً : ان عظمة الخالق سبحانه وتعالى متجلية في مخلوقاته وهي أوضح دليل عليه فالقوة والصبر على مشاق العمل الموجود في هذا وأشار الى ثور كان موجوداً أمامهم اذ ذاك دليل على خالقه فكان ذلك باعثاً على اتخاذ التماثيل الحجرية لبوذا وتقديمهم الثور

ولا يبعد ان « ذرادشت » قال لا تبعه يوماً ما تقريباً لا فهمهم

أيضاً ان هذه « وأشار الى الشمس » نور يهديكم الى الله تعالى فلو لاها لم تكن النار التي توقدون ولا النور الذي به تستضيئون ليلاً ، فسرعان ان قدسوا بمدى الشمس والنار والنور وذلك قياساً على تعليل ما هو عند اتباع بوذا ، فالجهل وسوء التفاهم ولدا سوء الاعتقاد نعوذ بالله منه ، والا بان لم يكن ذلك كذلك فان بوذا وزرادشت لم يكونا أصحاب تعاليم سامية وهو مخالف للحقيقة اذ انهم يعتقدون ان الله تعالى قائم بنفسه اذلى ابدى الخ . وما ذكرناه فيما مر آنفاً بخلاف ما كان في العصور الوسطى فقد كانت ترفت بالناس الاحوال نوحاً ووجد بينهم العلماء والحكماء فلم يكن للجهل مدخل في المعتقدات ، ففي العصور الوسطى المذكورة استمر النهي عن اتخاذ معبود غير الله سواء أ كان من الأصنام أم غيرها فلم يكن سوء التفاهم بين الرسل والمرسلين اليهم سوى الاصرار والعناد ، فان توارىخ الرسل وتوارىخ أممهم تؤيد هذه الدعوى ، ونورد للقارىء ما يمثل ذلك فنقول :
جاء في التوراة في الاصحاح (٤٩) عدد (١١) من سفر التكوين قوله (لا يزول قضيب من يهوذا ولا مشرع من بين رجليه حتى ياتي شيلون وله يكون خضوع شعوب) ومعناه انه لا تزول سلطنة اليهود ومملكاتهم ولا المتشرعون بشرائع جديدة حتى يجي المسيح ، فلما جاء مولانا المسيح عليه الصلاة والسلام وعلامة صدقه ظاهرة بمقتضى هذه البشارة اذ كانوا وقت رسالته تحت حكم الرومان ليست لهم حكومة خاصة كما أنه لم يكن فيهم متشرع جديد عاندوه وكذبوه واحتقروه وتسببوا في صلبه كما يزعمون

وكانوا كلما احتج من آمن به من النصارى على صدق رسالته بهذه الآية
احتج أولئك اليهود على التكذيب بما ورد في التوراة أيضاً بالاصحاح
(٢١) من سفر التثنية عدد (٢٢) وهو قوله (الملق ملعون من الله) ومعناه
ان كل من يصاب على خشبة الصليب ملعون لأنه لا بد من أن يكون من
الجناة الذين استوجبوا بجنایاتهم القتل ، وزاد اليهود على التكذيب رميه
وأمه سيدتنا صريم البتول بالافك مما لا يزيد أن ندس كتابنا بإيراده
لكونه جاء لهذا العالم بلا أب وانبي على هذا أن ازداد العناد بين الفريقين
فبالغ اليهود في دعوى الزور والبهتان كما بالغ النصارى في تقديس مولانا
المسيح حتى جعلوه إلهاً وابن إله وأنه هو والآله وروح القدس الذي كان
علة الحمل به عليه السلام متحدون اتحاداً تاماً ثلاثة في واحد لا تنفصل
ولا تتجزأ ، وظلوا جميعاً أى اليهود والنصارى على هذا وذاك حتى جاء
بولس فأورد في رسالته الى أهل غلاطية بالاصحاح الثالث عدد ١٣ قوله
(المسيح اقتداناً من اللعنة فصار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب في الناموس
« ملعون كل من علق على خشبة » ولو صح ان هذه الآية من قول
بولس وصح انه ملهم من الله تعالى ومعضوم من الكذب لكان
الخطب أعظم من دعوى كلا الفريقين معاً ، اذ مع القول بالاتحاد المشار
اليه أنفاً تكون اللعنة شاملة الله تعالى تقديس وتنزه عن ذلك وهو كفر
صريح غليظ نعوذ بالله منه ، والا بأن كانت اللعنة خاصة بالمسيح وحده
لتأكد الانفصال وكان ضد القول بالاتحاد ، فليس لهم الا أحد القولين ،

ولسنا في معرض الجدل حتى نورد هنا نص رسالتنا المنشورة بعنوان
« أسئلة اسلامية تحتاج الى أجوبة مسيحية » التي لا يمكن لمسيحي ان
يجيب عليها جوابا بتعقل وانصاف ، وكما أصر اليهود على جحد ورفض
رسالة سيدنا مولا ناسا المسيح فقد أصروا هم والنصارى على جحد ورفض
رسالة سيدنا مولا ناسا محمد صلى الله عليه وسلم لانه جاء هادما لكل تعاليمهم
الا ما كان خاصا بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر
وثانياً من وجه خاص نقول : أما سبب الاختلاف بين أهل الدين
الواحد الى فرق شتى هو اشتغال علماء كل دين بالتأويل من عند انفسهم
واستمرارهم على تخطيطهم بعضهم البعض بما توحى اليهم مداركهم
وتصوراتهم كما فعل أئمة اليهود وقسس النصارى وفقهاء المسلمين ولو
كان كل فريق من هؤلاء جميعاً لم يخرج في تعليمه الناس أمر الدين
عما أتى به الرسول ويكون ناقلاً فقط ، وشارحاً ومفهماً فقط ، لما كان الى
تعدد المذاهب والفرق في الدين الواحد من سبيل ، إذ ان الله المرسل
واحد والرسول المرسل هو واحد والطريق الى الحق كذلك واحد
وأما سبب انكار من ينكرون الصانع القديم سبحانه وتعالى فمبنى
على ان من الناس من لا يصدق الا بما تشهد به الحواس ولا مدخل لنور
العقل عنده فهو لا يقتنع من طريق التفكير والتصور غالباً ، وليس هذا
قاصراً على فريق الجهلاء فقط بل نرى من أهل العلم من لا يقنعه الا
المحسوس اعتماداً على الحواس التي قد تخطيء فيما هي مخلوقة لتمييزه فمن

الخطأ المحض الاعتماد عليها في ادراك ذات الصانع القديم العظيم سبحانه
وتعالى المحجوب عنا بحجاب العظمة والجلال ، ومن أعظم ما غلط الناس
فيه قياسهم الغائب على الشاهد . فأمثال هذا الفريق من الناس متى
باحثناهم وجادلناهم فان مساق البحث يرغمهم على تتبع سلسلة تعليلات
للكائنات الى ان يقفوا عند سبب مجهول لهم كما سبقت الاشارة الى
ذلك مرارا ، وبناء عليه فليس في الكون واحد لا يعترف بالصانع
القديم عز شأنه اذ يعترف اضطرارا بالوقوف أثناء التعليل عند ذلك السبب
المجهول ، وهذا انما هو اعتراف مرغم ، وما ذلك الا لانه لا يريد ان
يذعن لما جاءت به الرسل من وجوب الاقرار بالخالق فهو كافر من
هذه الجهة التي هو الجحود بعينه وقد شاركه في الكفر من يجحد
ما جاءت به الرسل أيضاً من التوحيد الخالص فيشرك به غيره وعليه
فكل مشرك كافر ولا عكس ، ونحن لا نعرض لدحض أدلة الكافرين
والمشركين ونكتفي بايراد ما به تكون السلامة والفوز لكل ذي عقل
وانصاف كما اشترطنا في أول الكتاب والله تعالى هو الهادي الى
الصواب لا إله غيره



الفصل الثاني

في

أدلة الموحدين المنزهين على ان الله تعالى واحد غير متعدد وانه أزلي أبدي

الدليل على انه واحد

من طريق العقل

لأجل الوصول الى البرهان الذي يصح ان يكون حكماً على ان الله تعالى واحد نفرض جواز كونه اثنين ومتى قلنا بهذا الفرض أوجب علينا نور العقل ان نقول : لا بد من انهما اما ان يكونا متساويين في القدرة والارادة أو مختلفين فيهما ، فاذا فرضنا انهما متساويان في القدرة والارادة فلا بد من انهما في حال تساويهما في القدرة والارادة اما ان تكون قدرة كل واحد منهما غير منفردة بالخلق والايجاد وان تكون ارادته عين ارادة الآخر واما ان يكون كل واحد منهما قائماً بذاته منفرداً بقوته وارادته دون ان تتوقف قدرة و ارادة هذا على قدرة و ارادة ذلك ، فان كان الامر الاول بأن يكونا متساويين في القدرة والارادة وان قدرة كل واحد منهما غير منفردة بالخلق والايجاد وان ارادة أحدهما عين ارادة الثاني فلا محل للقول بأنهما اثنان لعدم امكان انفراد أحدهما

لا بقوته ولا بإرادته ، ولا معنى أيضاً للقول بألوهية أحدهما ، إذ أن معنى الألوهية يعطى الانفراد بالعلية والقهر والسلطان وعدم الافتقار للغير . وإن كان الأمر الثاني بأن يكون كل منهما منفرداً بقدرته وإرادته دون ارتباطه بالآخر في أية واحدة منهما فلا بد في هذه الحال من أن يذهب كل واحد منهما في الخلق والايجاد الى غير ما يذهب اليه الآخر فيقع النزاع بينهما فيختل النظام وهو مالا يصح فرضه بل يثبت بطلانه ، وإذا فرضنا انهما مختلفان في القدرة والإرادة بأن يكون أحدهما أقوى قدرة وأنفذ إرادة فلا بد أن يكون أحدهما أكبر والثاني أصغر ، وما دام أن معنى الألوهية يعطى الانفراد بالمعظمة والكبرياء فحينئذ يكون الأصغر عاجزاً أمام الأكبر الذي يكون هو الآلهة وبناء عليه فيثبت المطلوب من أن الآلهة يجب أن يكون واحداً لا متعدداً ، وثبوت عدم جواز فرض كونه اثنين يؤكده بالقياس عدم جواز فرض كونه أكثر من اثنين . وإن وحدانيتها تفيد أنه واحد في ذاته فلا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتركب ، وواحد في أفعاله فلا شريك له ولا نظير ، وواحد في صفاته فلا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء ، وهذا الدليل العقلي هو معنى ما جاء بالقرآن في سورة الأنبياء قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) وفي سورة قد أفلح قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان من إله إذا ذهب كل الله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) وفي سورة بني إسرائيل قوله تعالى (لو كان

معهم آلهة كما تقولون إذا لا بتغوا الى ذى المرش سبيلا سبحانه وتعالى
عما يقولون علوا كبيرا .

الفصل الثالث

الدليل على أنه تعالى أزلى أبدي من طريق العقل

اننا لو تمسكنا مع العقل وقسنا الشأن فى الخالق على الشأن فى المخلوق
لا خطأنا القياس ، وذلك لأن الشأن فى كل كائن مخلوق ان يكون
له وجود سبقه عدم فيكون لوجوده حينئذ ابتداء بعد ان أوجده موجود
كما ان كل كائن مخلوق سيصير الى العدم ويكون وقتئذ لوجوده انتهاء
ومن صار موجودًا بعد ان كان معدومًا ويصير معدومًا بعد ان صار
موجودًا لا يكون قادرًا على الخلق والابداع بلا سابقة مثال بل
لا يكون الاله صانعًا لأن الاله الصانع لا يكون شبيهًا بما صنع وخلق
بل يجب ان لا يشبهه مخلوق لاني ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله
ووجب أن يكون وجوده ليس عن موجد أو جده بل لا بد من أن يكون
واجب الوجود وقائمًا بنفسه بلا افتقار الى غيره ويكون أزليًا أبدية ،
اذ لو فرضنا أن له موجدًا وان لذلك الموجد موجدًا آخر وهكذا فلا بد
لنا من أحد أمرين فاما أن تنتهى الى موجود بلا موجد واما أن لا تنتهى
الى ذلك الموجود ، فاذا كان الفرض الأول وانتهينا الى موجود بلا

موجود فيكون هو الآلة الحلق ويكون الفرض بأن له موجوداً آخر هو فرض باطل ، وان كان الفرض الثاني ولم تقف عند تصور موجود بلا موجود فلا بد من أن يستمر التسلسل الذي هو ترتيب أمور وتماقبها في جانب الأزل بلا نهاية وهو فرض المستحيل. فثبت انه أول بلا ابتداء أى أزلى ، واذا جرينا على الفروض الوهمية التي يفرضونها قياساً على ان البيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة الى مالا نهاية له وقلنا ان الآلة الذي يتوقف وجود العالم على وجوده هو كذلك يتوقف وجوده على وجود العالم فلا بد من أن يستمر الدور الذي هو ترتيب وجود كل من الشئتين على وجود الآخر فيكون كل منهما موجوداً قبل وجود سببه فيلزم على هذا أن يكون موجوداً قبل وجود ذاته وهو واضح البطلان ، ويكون الفرض مستحيلاً كذلك . واذا ثبت بطلان الدور والتسلسل وانه سبحانه وتعالى أزلى فما لاشك فيه أن يكون أدياً بلا انتهاء لان الذي لا ابتداء لوجوده لا بد من أن لا يكون لوجوده انتهاء اذ الذي يهب الحياة بمد أن يوجد لها يستحيل عليه الموت خصوصاً وان أحوال الكائنات تدل على ذلك وتثبته بأجلى بيان إذ هي مستمرة التسخير بين عوامل الحركة والسكون والوجود والعدم والانتقال من حال إلى حال تحت سائر الأعراض بالقهر التام ويستحيل أن يكون كل هذا من لدن سوى الأزلى الأبدى القاهر فوق عباده على الدوام لا إله غيره بهذا الدليل وسابقه لا يفتقر الناظر في كتابي هذا إلى الأدلة

الأخرى التي ولدتها المجادلات والمباحثات في شان مبدع الكائنات، فان دليل الوحدة يقتضى أن يكون الآلهة إلهًا فردًا منزهاً عن الشريك والضد والند والمثيل والمعين والصاحب والصاحبة والوالد والولد اذ لو يكون له واحد من هؤلاء المذكورين لما يصدق عليه تعالى انه واحد، ومن حيث كونه واحدًا لا نظير له فهو حتى قادر مريد عالم سميع بصير متكلم، ومن حيث ثبوت انه أزلي أبدي فهو يخالف لكل حادث وقائم بذاته بلا افتقار الى غيره، اذ كيف يكون إلهًا واحدًا أزليًا أبديًا ولا يكون متصفًا بهذه الصفات وغيرها من صفات الكمال جميعها اى كيف لا يريد ولا يقدر ولا يعلم الخ وكيف لا يكون حيًا أو يكون مماثلاً للحوادث من الموجودات أو قائمًا بغيره بالافتقار الى موجود تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا، فان كل صفة تناقض هذه الصفات تخرجه عن أن يكون إلهًا وكيف يتصف بوحدة من أضداد هذه الصفات التي لو اتصف بوحدة منها مخلوق كصفات العمى والجهل والصمم والبكم الخ لأصقت بالموصوف بها عيبًا يجمعه في حال أدنى من حال أمثاله المخلوقين فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، فلا ينبغي لأحد أن يورد مثل هذه الفروض على ذهنه مطلقا حتى ولا للبرهان على نفيها لأن الذى يحتاج لبرهان من أمثال تلك البراهين على نفي صفات الأضداد عنه سبحانه وتعالى جاهل وغبي بل مجنون لا عقل له، ولا ينبغي لأحد أيضًا أن يشتغل بالبحث من حيث ان صفاته تعالى هي عين ذاته أو غير

ذاته أو زائدة على ذاته لأن القول بهذا وذلك فيه تعرض للبحث في كنه الذات فالحق انه لا يعرف كيف هو الا هو والمعجز عن الادراك ادراك لقوم يتبصرون ،

واذ كنا نرى الشمس بأعيننا وهي ذرة من مخلوقاته وأمثالها كثير في الفضاء الذي لانهاية له أفلا يخجل من يتعرضون للبحث في كنه ذاته سبحانه وتعالى فيدعى من يدعى انه مثلث الأتقانم أى الاصول أو مسدسها أو اثني عشرها أو انه حال في انسان أو حيوان أو جماد ثم يقيمون عليه الحجج والبراهين الواهية الساقطة التي لا تنطبق على قضايا العقل السليم مطلقا لاثبات ما يذهبون اليه من المذاهب الفاسدة ، فسبحانه من اله عظيم مازال ينشر لواءه حاميه على خلقه الى يوم يطول فيه الحساب

الفصل الرابع

أسماءه سبحانه وتعالى

ان هذا الاله العظيم الواحد الاحد الفرد الصمد ليس هو كفرد من افراد الخلق حتى يكون كمنكرة شائعة في جنسها فيفتقر الى اسم من الأسماء لتمييزه به ، كلا ، ولكن اسمه (الله) اسم جامع لما ينطوى في لفظه من شؤونه سبحانه وتعالى من العظمة والجلال والكبرياء ولا بد أن يكون وضعه سيدنا آدم أبو البشر بالهام وتوفيق من الله

تعالى كغيره من الاسماء التي هي كالصفات حتي لا يدعو مخلوق بما لا يتناسب مع جلال ذاته عز وجل ، وهذا الاسم (الله) متحد في سائر اللغات معنى وان اختلف فيها لفظا ومبني وليس لله سبحانه وتعالى اسم يتضمن معنى السامية فقط بل ان كل اسم من اسمائه تعالى يتضمن معنى آخر وهي من هذه الجهة قسمان قسم يطلب العالم والعالم يطلبه كاسمائه الرب والرزاق والخالق والنافع والضار والقادر والوهاب والمهي والمميت والقهار والمعز والمنزل وهكذا ، فكل اسم من هذه الاسماء وأمثالها يشير بعناه الى طرفين لا انفكاك لاحدهما عن الآخر ، فالرب لا بدله من مربوب والمربوب لا بدله من رب والرزاق لا بدله من مرزوق والمرزوق لا بدله من رزاق ، والخالق لا بدله من مخلوق والمخلوق لا بدله من خالق وهكذا ، وثانيهما قسم يطلب العالم ويشير الى معنى كوني تنزه الله سبحانه وتعالى عنه كاسمائه القدوس والحميد والمجيد ، فالاسم «القدوس» يشير الى انه تعالى منزوع عن صفات النقص والى ان الخلق يعترهم ما يضاد القداسة ، والاسم «الحميد» يشير الى ان الله تعالى مختص بالمجد والشرف الكامل التام والى ما يعترى المخلوقين من الصفات التي تباين الشرف على العموم والشرف الكامل التام على الخصوص والاسم «الحميد» يشير الى ان الله تعالى مختص بالصفات الحميدة التي لا يليق معها الحمد لغيره والى ما يعترى المخلوقين من الصفات التي لا يجعلهم أهلا للحمد وهكذا . وأسماؤه تعالى المشهورة عندنا عاشر المسامين تسع وتسعون اسما هي توحيدية وتنزيهية وتكوينية

وكالها متفرقة في سور القرآن الكريم الذي هو كلام الله القديم
جل شأنه ، ويشير اليها فيه قوله تعالى : (قل ادع الله او ادع الرحمن
أياما تدعو فله الاسماء الحسنى)^(١) وقوله تعالى (والله الاسماء الحسنى
فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)^(٢)

تفريع

وبما ان هذا الاله العظيم واحد فرد واجب الوجود فافعاله وصفاته
وسماؤه واجبة الوجود

وبما ان اسماء التكوينية واجبة الوجود من جملة اسمائه فواجب
ان تكون لها مظاهر تجلي بها معانيها وما تلك المظاهر الا الموجودات
التي تعلقت بها قدرة و ارادة وعظمة حضرة الاله العظيم واجب الوجود
فأوجدتها على هذه النظم البديعة لتدل على انه واحد من جميع جهاته
واحد في عموم صفاته واحد بتمدد اسمائه التي تليق بجلال ذاته وعلى انه
يتعالى عن أن تدركه العقول ، وانه يستحيل ان يكون لما يعترى المخلوقين
من النقص ، اليه وصول ، وانه الواحد المعبود ، الذي اليه يرجع كل موجود
ولقد كثرت الكتب الكبيرة الحجم المبددة المجلدات في شأن هذا
الخالق العظيم ولقد تخطت كثير من الفلاسفة فاكثروا فيه من الآراء
المختلفة التي لم يخجلوا اكثرها من خلط وخبط لاستحالة ان يكون المخلوق
الضعيف المكوّن (اسم مفعول) محيطاً بالتعليقات التي يراد بها الوقوف
على حقيقة أفعال الخالق المكوّن (اسم فاعل)

انه ليس من برهان حقيقي ودليل يقيني يكيف كيفية التكوين
الاما ورد في كلامه القديم من قوله جل من قائل : (انما امره اذا اراد
شيئا ان يقول له كن فيكون)^(١)

ان لفظ الامر في هذه الآية الكريمة وهو « كن » يفينا عن
البحث في كيفية التكوين فانه يدل على اختصاصه بسر التكوين اذ لا
شريك له فيه ويدل من وجهة أخرى على أنه من السرعة بحيث يقترن
الإنجاد بلفظ الامر ، ومع هذا فلا يناقض سرعة التكوين شهود المكونات
تستنفذ زمناً ما في تمام التكوين طولاً وتصرافاً في الزمن بالنسبة لنا لاله
سبحانه وتعالى اذ لا يمر عليه جل شأنه زمان . ولقد صدق الفلاسفة
الاسلاميون في قولهم : ان الله تبارك وتعالى لم يبدع سائر الموجودات
دفعة واحدة لكيلا تجتمع المضادات والانتقابات في شيء واحد في زمان
واحد من جهة واحدة فدل ذلك على حكمة سامية نفعا نأخذ علينا فقد
فتح بها أمام أعيننا طرق الاستدلال على وجوده ووحدته وجلاله وكماله
وعظمته فلا عسر بعدها استبصر . ولهذا أكثر سبحانه وتعالى في
الكتاب العزيز من قوله جل شأنه : « أفلا يعقلون » و « أفلا يبصرون »
و « أفلا يتفكرون » الخ

ولقد يدل على ان الموجودات لم تتم دفعة واحدة في التكوين قوله
سبحانه وتعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام)^(٢)

قد تبين مقدارها في قوله تعالى (ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)
أى ان أن السنة أيام هي ستة عصور وهذا يؤيد ما قاله علماء الفرج
في علم طبقات الارض ، ويدل كلام الله القديم بهذين الآيتين وأمثالها انه
تعالى أبدعها من عنده سالكة سلسلة الترتيب التي أرادها لها جل شأنه
فكان أقربها اليه أتقربها ، ذلك من جهة ارادته والا فكيفها صنع يده
ونتيجة إبداعه وهنأحار مدارك صغار العقول فيجب ان لا تكون هذه
النقطة موضع مناقشة

تفريع ثان

ولما كانت الموجودات عوالم شتى منها ما هو عالم نوراني ومنها ما
هو عالم ظماني وكما هو مشتمل على صنوف ثمن المخلوقات لا حصر لها
ولما كانت العوالم النورانية شاملة لأرواح نورانية مجردة وغير
ملايسة للمادة على عكس سكان العوالم الظلمانية التي هي أرواح نورانية
ملايسة للمادة ، ولما كانت هذه الأخيرة تحت سلطان الوجود والفناء
وسلطان التركيب والنمو قبل الفناء ، وكانت منذ وجودها الى وقت فناءها
منوط بحفظها بقوى أرواحها التي هي محل التنازع بين عالمين : نوراني
صدرت عنه وظماني وردت عليه واكمل واحد منها شؤون يقتضيها ، ولما
كان من شؤون هذا العالم الظماني ما يستلزمه بقاء النوع الانساني بالتناسل
عن الزواج واللقاح وهذا انما يستلزم الفناء واللباس والمسكن وكل هذا
يستلزم التعاون والاشارة الك ولا يمكن ان يتولى واحد منهم بنفسه جميع

ما يحتاج اليه من لوازم التعيش فصاروا مضطرين الى ان يتناونوا فيقوم كل فرد منهم بما يحتاج اليه المجموع اذ لولا ذلك لتراكت على الفرد منهم من ضروريات عيشه ما يستحيل عليه القيام بعشر معشاره وحده ، وفي هذا ما فيه من اشتغال كل منهم بما يقصيه عن عالمه الذي صدر عنه بل يجعله منغمساً في اللذائذ المادية التي لا يكثُر منها يستوجب الطمع المستوجب للأفانية وارتكاب الظلم المستوجب للانحراف عن الانصاف والعدل خصوصاً لأن الناس متفاوتة أقذارهم من حيث قبول الخير والشر والفضيلة والرذيلة وذلك لتفاوتهم في أمزجة أبدانهم وقوى انفسهم وتباينهم في استعدادهم وتخالفهم في أميالهم ولرؤية الفرد منهم ان لنفسه حقاً على غيره وان لا حق لغيره عليه فيتحكم حب النفس فيه الى إثارة قوة غضبه وشهوته فلا تدعنان لسلطان العقل ، فلما يخرجوا من تبعه التغافل فيما هو ليس في حكمة ايجاد الخالق لهم في شيء قد لطف الله سبحانه وتعالى بهم فأفاض عليهم نعمة التكليف بقانون سماوي مشتمل على أوامر يجب اتباعها ونواه يجب اجتنابها حتى يكونوا سائرين في طريق الوصول الى الغاية التي برأهم بارثهم لأجلها فكان هذا التكليف مدعاة الى حكمة ارسال الرسل عليهم الصلاة والسلام

فهرست هذا الكتاب

صحيفة

١ خطبة الكتاب لإبانة الغرض في تأليفه

٤ المقدمة في لفت الانظار الى وجوب العظة والتبصر والعمل اسلوبك

سبيل النجاح

٨ كلام على الروح

١٤ الباب الاول (معلوم مجهول أو مجهول معلوم)

١٥ اثبات وجود الخالق سبحانه وتعالى من طريق الفلاحة

٢٢ « « « « « «

٢٥ « « « « « «

٢٩ « « « « « «

٣٥ « « « « « «

٣٧ « « « « « «

٤٢ « « « « « «

٤٨ « « « « « «

« « « « « «

٦٠ « « « « « «

٦٢ دليل عام على وجود الصانع القديم سبحانه وتعالى

٤٦ الفصل الاول - في بيان اختلاف الناس من حيث معرفة الصانع القديم

سبحانه وتعالى

٧٧ الفصل الثاني في ادلة المنزهين على ان الله سبحانه وتعالى واحد غير متعدد

وذلك كله من طريق العقل

٧٨ الثالث على أنه أزلي أبدي وذلك من طريق العقل أيضا

٧٧ الرابع في اسمائه تعالى

٧٩ تفریع في حكمة التكوين

٨١ تفریع ثان في حكمة التكليف

مواضيع الكتاب الثاني المشار اليه

- ١ حاجة الخلق الى الرسل واثبات صدق رسالتهم
- ٢ كلام عن حضرة صاحب الرسالة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم
وانه أحق الرسل بالاتباع
- ٣ كلام على التوبة
- ٤ العبادات وأقسامها
- ٥ بعض ما يهم ذكره لعامة الخلق من أبواب المعاملات شرعاً
- ٦ خلق الاعمال وشرح مسأله القضاء والقدر بأسلوب لا يستعصى
على العقل فهمه ولا ينافى مقصد الشرع الشريف نظمه والتدليل على
ان التوكل لا ينافى الاخذ بالاسباب
- ٧ ذكر كثير من الحكم والمراعى الصالحة للدنيا والأخرى